T
209A

الطهطـاوي

لبّـــــان

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

THE IMAGE OF THE WEST AS VISUALIZED BY TAHTAWI

by

RIMA MUNIR LABBAN

A thesis

submitted in partial fulfillment of the requirements
for the degree of master's of arts
in the Arabic & NEL Department of the
Near East Languages
American University of Beirut

Beirut , Lebanon

December 1993

الجامعة الاميركية في بيروت

صورة الغرب كما رآه الطهطاوي

ريما منير لبّان

رسالة
مقدمة لاستكمال متطلبات نيل شهادة استاذ في الآداب
(الماجستير)
الى دائرة اللغة العربية ولغات الشرق الادنى
في الجامعة الاميركية في بيروت

بيروت ، لبنان

كانون الاول ١٩٩٣

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

THE IMAGE OF THE WEST AS VISUALIZED BY TAHTAWI

by
RIMA MUNIR LABBAN

Approved :

Professor Nadeem Naimy	Advisor
Professor Muhammad Najm	Member of Committee
Professor Ramzi Baalbaki	Member of Committe
	Member of Committee

Date of Thesis Presentation : 16/12/1993

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

Thesis release form

I, RIMA MINUR LABBAN

authorize the American University of Beirut to supply copies of my thesis to libraries or individuals on request.

Rima Labban.

Signature

16-12-1993

Date

AN ABSTRACT OF THE THESIS OF

RIMA MUNIR LABBAN for Master of arts
Major : Arabic

Title : The Image of the West as visualized by Tahtawi

Tahtawi (1801 - 1873) an Azharite cleric who lived for five years in Paris and wrote about his experience there, is a patriarchal figure in the modern Arab Renaissance.

Many are the works that have been written on him, and that have discussed his life, character, works and achievements. Some have even gone futher to point out the impact of the west on his thought and general outlook. But, no work that we know of has so far, tried to portray the image that Tahtawi himself has formulated of the west, and to what extent it was, culturally, religiously, socially, literally etc. identical with the original. This precisely is attempted in this thesis .

Our study falls into six parts or chapters. The first deals with two eminent historians, one from Egypt and the other from Mt. Lebanon, who in the early 19th century seem to have been the first to detect the on coming impact of the West on the Islamic East. As such, they have preceded Tahtawi in writing about the French and the French revolution. The first, Jabarty (1754 - 1822) lived the Napoleonic invasion of Egypt and recorded extensively his impressions and experiences at the time in his Ajaib al - Athar and Mazhar al Taqdis, the second Niqula al- Turk (1769 - 1828) a secretary and an advisor to prince Bashir of Lebanon went further to write in detail about Napoleon and the French revolution coming up with his work al - Hamla al Faranciyah ala Misr wa al - Sham. The two it is thought in this thesis, make an excellent introduction to the study of Tahtawi who went further than them both and wrote about French life and culture not as a spectator as they both did but as one who lived in Paris for five years and reacted to the European life and culture as one fully involved in them.

In the other five chapters Tahtawi's experience is studied under five different but inter - related headings; The Political, The Economical, The Cultural, The Religious and The Social. It is believed that by combining the five, the image of the West in Tahtawi's mind and how it compares with the original is brought to completion.

The study ends with a conclusion in which the tension in Tahtawi's mind between two equally favored images, that of the West he saw and that of the East from which he came, is brought into full focus.

الاهــــــداء

إلــى روح أمــي القبــس الــذي مــا زلـت بنــوره أهــتــدي

وإلــى أبــي الــذي بعـطــائــه ومحـبـتــه أغـتــذي

وإلــى رفــيق دربــي بسـام الذي من تضحيته أستمد قوّتي

إليكــم جميعــاً هذا العمل الذي هو ثمرة جهودنا المشتركة .

المحتويات

الصفحة

المقدمة

كثرت المؤلفات التي تناولت تأثير الغرب في الشرق وتأثر الشرقيين بمظاهر الحضارة الغربية وتبنّيهم لبعضها . كما كثرت المؤلفات التي تناولت ، من بين هؤلاء الشرقيين ، الشيخ رفاعة الطهطاوي[1] (١٨٠١ - ١٨٧٣م) ، فتحدثت على رحلته الى باريس وعلى ريادته لحركة النهضة العلمية في بلاده بعد عودته، وعلى تأثّره بكثير من مظاهر الحضارة الغربية .

ولكننا لم نقع ، ضمن نطاق بحثنا ، على مؤلّف تناول صورة الغرب كما رآها الطهطاوي ؛ مع أن فهم الطهطاوي للغرب وانطباعه عنه يسبقان مسألة تأثره به أو نقله لبعض مظاهره الحضارية .

كيف فهم الطهطاوي الغرب ؟ ما هي مآخذه عليه ؟ ما هي مواطن إعجابه به ؟ ما هو موقفه منه ؟ ما هي نقاط التلاقي والاختلاف بين حضارة الطهطاوي وهذا الغرب ؟ أين تجلت الجدلية بين الشرق والغرب في ذهن الطهطاوي ؟

إن هذه التساؤلات والإجابة عليها ، أو محاولة الاجابة عليها ، تعيننا على فهم موقف الطهطاوي والمشرقيين من بعده من الحضارة الغربية الوافدة ، وعلى فهم طبيعة العلاقة بين الشرق والغرب الى يومنا هذا .

وكان لا بد لنا ، قبل الكلام على تجربة الطهطاوي ، من الوقوف على تجارب المشرقيين المتقدمين ، ودراسة انطباعاتهم عن الغرب ومدى وعيهم لما يمثّله من أفكار ومبادىء وقيم . والغاية من ذلك أمران :

الأول هو التعرف الى خلفية الموقف المشرقي من الغرب بهدف تحديد موقع الطهطاوي ومكانته بالنسبة الى من سبقه وتقييم أرائه على ضوء ما تقدم من آرائهم .

---

(١) لن نتوقف عند سيرة رفاعة الطهطاوي حتى لا نخرج عن نطاق بحثنا. ولقد وقعنا اثناء دراستنا على مؤلفات كثيرة تناولت سيرته بالتفصيل، منها مقدمة محمد عمارة للمؤلفات الكاملة لرفاعة الطهطاوي .
راجع ايضاً المؤلفات المدرجة في لائحة المصادر والمراجع .

والثاني هو رصد التغيرات التي طرأت على نظرة المشرقيين الى الغرب ؛ فلقد كان الطهطاوي أول من اطلع على الحضارة الغربية في ديارها لذلك جاءت نظرته الى الغرب مختلفة عن نظرة من سبقه من المشرقيين الذين لم يتعدّ مفهوم الغرب في أذهانهم حدود الحملة الفرنسية أو بعض أخبار متفرقة ، مما ترامى الى مسامعهم ، عن الثورة الفرنسية وما رافقها من أحداث.

ومن بين هؤلاء المشرقيين الذين تكلموا على الغرب ، والذين كانت لهم آراء صريحة فيه نذكر المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي (١٧٥٤ – ١٨٢٢م) والشاعر المؤرخ نقولا الترك (١٧٦٣ – ١٨٢٨م) .

ولقد أرّخ كل من المؤلفين لأحداث الحملة الفرنسية بناءً على طلب أحد الحكام السياسيين ، فوضع الجبرتي كتابه مظهر التقديس في زوال دولة الفرنسيس بناءً على طلب من الوزير يوسف باشا "الذي أراد تاريخ فترة الحملة الفرنسية لتكون عبرة بين الناس"[١] . ووضع نقولا الترك كتابه الحملة الفرنسية على مصر والشام بناء على طلب الامير بشير الذي عهد اليه "بمراقبة الحالة العامة أثناء الاحتلال الفرنسي"[٢] لمصر . فكان عليه "أن يحسن المراقبة من مقره ، في القاهرة أولاً ، ثم في دمياط ، وأن يدوّن كل ما يتصل به من أخبار الجيوش وحركاتها ، وعددها وعُددها ، وأن يُرسل بخلاصة ذلك الى أميره"[٣] .

ولقد شكلت تقارير ومؤلفات هذين المؤرخين باكورة الانطباعات الشرقية القيّمة عن الغرب ولم تكن صورة الغرب في أذهان الشرقيين، قبل ذلك ، أكثر من مجموعة أفكار وأوهام وأحكام مسبقة تفتقر إلى المشاهدة والتجربة والتفاعل .

---

(١) أمل بشّور، حملة بونابرت إلى الشرق ، مخطوطة نقولا الترك ، جروس برس، طرابلس ، لبنان ، الطبعة الاولى ، ١٩٩٣ ، ص ٥٢.

(٢) نقولا الترك ، الديوان ، تحقيق فؤاد افرام البستاني ، بيروت ، ١٩٤٩، ص ب، ج .

(٣) المصدر نفسه ، ص ج .

ولقد أردنا أن تكون دراستنا لهـذا الجيل وافيـة وعيبـة فلم نشأ أن نقتصر على تجربة أحد المؤرخين دون الأخرى ؛ فلقد جاءت نظرة واحدهما مختلفة عن نظرة الآخر ومتممة لها ذلك أن كلاً منهما قد قيّم الغرب من خلال انتمائه الديني والسياسي والفكري:

فالجبرتي المؤرخ المسلم المصري الذي عاش تحت سلطة العثمانيين والمماليك قد أتى بمواقف وآراء تختلف عن مواقف نقولا الترك الشاعر والمؤرخ المسيحي اللبناني[1] الذي عاش في كنف الأمير بشير .

كانت الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ أول احتكاك فعلي مباشر للشرق الاسلامي بالغرب الحديث . ولقد شكلت بجنودها وعلمائها وكل ما أتت به نموذجاً مصغراً عن الغرب ، اطلع عليه الشرقيون في ديارهم ؛ فاقترنت صورة الغرب في أذهانهم بهذه الحملة وبكل ما اشتملت عليه من مبادىء وأفكار وقيم .

ويمثل الجبرتي الذي أرّخ لأحداث هذه الحملة نموذجاً حياً لهذا الاحتكاك، أو لما نجم عنه ، وصدى لتصور المصريين ، نخبتهم وعامتهم، لهذا الغرب الزاحف .

وتدخل في تصور الجبرتي للغرب عوامل عدة تجعل نظرته ذات وجوه مختلفة ، من ذلك عامل دخول الغرب الى مصر كغازٍ محتل ، وعامل اختلاف الحضارة والدين وعامل هام جداً وهو جهل الجبرتي والمصريين شبه الكلي بأحوال الحضارة الغربية وما وصلت اليه في كافة المجالات .

فلقد كان الجبرتي والمصريون والمماليك يجهلون أحوال الغرب وما وصل اليه في فنون الحرب بفضل تقدم العلوم والتكنولوجيا ، فاستخفوا بتهديده ولم يعوا خطره ، واعتقدوا أن بإمكانهم صدّه بحوافر خيولهم .

---

(١) هو نقولا بن يوسف الترك ولد في دير القمر من اسرة يونانية الأصل . خدم الامير بشير الشهابي مدة طويلة . ولقد عهد اليه هذا الأمير بمراقبة الحالة العامة اثناء الحملة الفرنسية على مصر وان يدون كل ما يراه من تحركات واحداث ويوافيه بها .

يقول الجبرتي :

"في يوم الخميس [...] حضر الى الثغر عشرة مراكب من مراكب الانكليز ، ووقفت على البعد بحيث يراها أهل الثغر ، وبعد قليل حضر خمسة عشر مركباً ايضاً ، فانتظر اهل الثغر ما يريدون [...] فواصلوا البر ، واجتمعوا بكبار البلد [...] واستخبروهم عن غرضهم ، فاخبروا انهم إنكليز حضروا للتفتيش على الفرنسيس ، لانهم خرجوا بعمارة عظيمة يريدون جهة من الجهات ، ولا ندري اين قصدهم فربما دهموكم فلا تقدرون على دفعهم، ولا تتمكنون من منعهم ! فلم يقبل السيد محمد كريم منهم هذا القول ، وظن انها مكيدة ، وجاوبوهم بكلام خشن ، فقالت رسل الانكليز نحن نقف بمراكبنا في البحر محافظين على الثغر . لا نحتاج منكم الا الإمداد بالماء والزاد بثمنه ؛ فلم يجيبوهم لذلك ، وقالوا هذه بلاد السلطان وليس للفرنسيس ولا لغيرهم عليها سبيل؛ فاذهبوا عنا [...] وأما الامراء فلم يهتموا بشيء من ذلك ، ولم يكترثوا به اعتماداً على قوتهم وزعمهم انه اذا جاءت جميع الافرنج لا يقفون في مقابلتهم ، وانهم يدوسونهم بخيولهم"[1] .

ولكن سرعان ما ثبت عجز المصريين عن مدافعتهم .

يقـــول :

"فلما دخل الليل تحولت منهم [من الفرنسيين] مراكب الى جهة العجمي ، وطلعوا الى البر ، ومعهم آلات الحرب والعساكر ، فلم يشعر أهل الثغر وقت الصباح الا وهم كالجراد المنتشر حول البلد ، فعندها خرج أهل الثغر ، وما انضم اليهم من العربان المجتمعة ، وكاشف البحيرة ، فلم يستطيعون مدافعتهم ، ولا أمكنهم ممانعتهم ولم يثبتوا لحربهم . وانهزم الكاشف ومن معه من العربان"[2] .

---

(١) عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، تحقيق وشرح حسن محمد جوهر ، عمر الدسوقي ، ابراهيم سالم ، لجنة البيان العربي ، الطبعة الاولى ، ١٩٦٥ ، ج ٤ ، ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٨٥ .

وكان من البديهي ان ينظر الجبرتي إلى هذا الغرب الزاحف المحتل على أنه عدو خطير ، وكان لا يتوانى عن إظهار كراهيته له :

"فلما دهت الفرنسيس ثغرها [ثغر مصر] الخالي ، ووقفت منه على طلل بالي ، سهُل عليهم الحال فاقتحموه ، ودخلوا من باب الأقليم بدون ان يفتحوه [...] فعظم البلاء ، وأخذ العدو يطوي بساط الارض"(١) .

كذلك قوله :

"وليس ثم عند اهل البلد للقتال استعداد ، لخلو الابراج من آلات الحرب والبارود . وكثرة العدو وغلبته"(٢) .

وفي موضع آخر :

"داخل الناس من الفرنساويين خوف شديد ، وتجسم عندهم الفزع وغلب عليهم الوهم ، وفساد المخيلة ، ووسوست عليهم نفوسهم بمعان نطقوا بها، وتصوروا حقيقتها ، وتناقلوها فيما بينهم ، كقولهم ان عساكر الفرنساوي عازمون على قتل المسلمين ، وهم في صلاة الجمعة"(٣) .

وفي تعبيره عن كرهه للفرنسيين قوله معلقاً على خطاب بونابرت لدى دخوله الى مصر :

"إن جميع كلمه ملحون ، ومنشئه ملعون ، عجل الله لهم الوبال والنكال ، وأخرس منهم عضو المقبال ، وفرق جمعهم ، وشتت شملهم وأفسد

---

(١) عبد الرحمن الجبرتي ، مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس، تحقيق وشرح حسن محمد جوهر ، عمر الدسوقي ، ابراهيم سالم ، لجنة البيان العربي ، الطبعة الاولى ، ١٩٦٩، ص ٦ ،٧.

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٥٠ .

رأيهم وأخمد أنفاسهم وهدم أساسهم ، إنه على ذلك قدير"[١] .

ولقد دامت الحملة الفرنسية على مصر ثلاث سنوات تمكن الجبرتي خلالها من مشاهدة الفرنسيين عن كثب ومن التعرف الى حضارتهم في مختلف مظاهرها . وسنحاول في ما يلي أن نعرض باختصار لما تعرّف إليه الجبرتي من مظاهر الحضارة الغربية على صعيد السياسة والاقتصاد والعلم والدين والاجتماع والفن .

في حقل السياسة ، وعى الجبرتي مسألة القوانين الطبيعية المعمول بها في الغرب أو ما يسمى بالتحسين والتقبيح العقليين الذي عليه مبنى جميع القوانين الغربية .

يقول :

"والذي تحرر من عقايدهم أنهم لا يقفون على دين ، ولا يتفقون على ملّة، فكل واحد منهم ينحو ديناً ، يخترعه بتحسين عقله"[٢] .

وفي موضع آخر :

"وعقيدتهم السالكون فيها تحكيم العقل ، وما تستحسنه النفوس، بحسب الشهوات"[٣] .

وفي مثالٍ على تطبيق هذا القانون على الأحوال المدنية يقول الجبرتي :

"وفي يوم الأحد : اجتمعوا [العلماء المصريون بالفرنسيين] بالديوان ،

---

(١) مظهر التقديس ، ص ٣٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٤ .

وأخذوا فيما هم فيه ، فذكروا أمر المواريث . فقال ملطى : يا مشايخ أخبرونا عما تصنعونه في قسمة المواريث؟ فأخبروه بفروض المواريث الشرعية ، فقال: ومن اين لكم ذلك ، فقالوا من القرآن ، وتلوا عليهم بعض آيات المواريث . فقال الافرنج نحن عندنا لا نورث الولد ، ونورث البنت ، ونفعل كذا وكذا بحسب تحسين عقولهم ، لأن الولد اقدر على التكسب من البنت "(١) .

ولقد وعى الجبرتي مبدأ مشاركة الشعب في الحكم عن طريق المجالس النيابية عبر المجلس التمثيلي الذي طلب الفرنسيون من العلماء المصريين تاليفه للنظر في أمور الناس وتدبيرها :

يقول :

"ثم قال لهم [المسؤول الفرنسي لرسول شيوخ الازهر] لازم أن المشايخ والشورباجية يأتون الينا لنرتب منهم ديواناً ننتخبه من سبعة اشخاص عقـلا(٢) ، يدبرون الأمر"(٣) .

وكثيراً ما مر الجبرتي على مبادىء سياسية غربية أساسية كمبدأ المساواة مثلاً ، أحد مبادىء الثورة الفرنسية ، دون ان يفهم البعد السياسي أو الانساني لتلك المبادىء وكان يعارضها بمبادىء إسلامية مشوّهة ، تتكلم على مستوى مختلف عن ذلك الذي تكلمت الثورة الفرنسية عليه . يقول معترضاً على خطاب بونابرت :

"قوله [ان جميع الناس متساوون] عند الله تعالى هذا كذب وجهل وحماقة ! كيف وقد فضل الله بعضهم على بعض ، وشهد بذلك أهل السموات والأرض."(٤)

---

(١) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج ٤، ص ٣٢٩ .

(٢) عقلاء .

(٣) الجبرتي ، مظهر التقديس ، ص ٤٥ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٣٣ .

اقتصر ما رآه الجبرتي في حقل الاقتصاد عند الفرنسيين على بضعة تدابير وتنظيمات وضعتها الادارة الفرنسية حيّز التنفيذ لتنظيم امور المناطق المحتلة . ولقد لاحظ الجبرتي دور الادارة او الدولة في تنظيم الاقتصاد وفي الاشراف على كل الأمور لضبط الفوضى ومنع الغش وتحسين الانتاج وتسريعه بالجهد الأقل .

كما تفتحت عينه على نوع جديد من الصناعة ، تلك التي تعتمد على العلم وعلى الآلة .

وفي ضبط الفرنسيين لأمور الاقتصاد ومنع التجار من الغش ، يذكر الجبرتي حادثة حصلت في مصر ، إلا أنه لا يعلّق عليها الا بشكر الله على تلطفه بالناس .

يقول :

"وفي سابعة بعد الصليب نقص ماء النيل وكان من أول زيادته قاصراً عن العادة ، وزيادته شحيحة فضج الناس وانكبوا على شراء الغلة ، وازدحموا في الرقع والسواحل ، وطلب باعة القمح الزيادة في السعر ، فجمع الفرنسيس كل من له مداخلة في تجارة الغلال وزجروهم وخوفوهم وقالوا لهم : هذه الغلة الموجودة الآن إنما هي زراعة العام الماضي ، وأما هذا النيل فلا تخرج زراعته الا في العام المقبل ، فانزجروا وباعوا بالسعر الحاضر ، وقد كاد يقع البلاء العظيم لولا ألطاف الله حفّت ، ونعمه العميمة الشاملة حصلت "(١) .

ولقد أدرك الجبرتي دور الآلة في تسريع الانتاج ، وتخفيف المشقة، وتخفيض الكلفة ، أي عرف دورها الأساسي في تطوير العمل .

يقول :

"ويستعينون في الاشغال وسرعة العمل بالآلات القريبة المأخذ السهلة

---

(١) الجبرتي ، مظهر التقديس ، ص ١٨٦ .

التناول المساعدة في العمل ، وقلة الكلفة"[١] .

ولقد توقف الجبرتي عند جودة الصناعة الغربية واعتمادها الطرق الهندسية اي العلم .

يقول :

"وكذلك لهم فؤس وقزم محكمة الصنعة متقنة الوضع وغالب الصناع ، من جنسهم ، ولا يقطعون الأحجار والأخشاب إلا بالطرق الهندسية على الزوايا القائمة ، والخطوط المستقيمة"[٢] .

وفي موضع آخر :

"وأفردوا أيضاً مكاناً للنجارين وصناع الآلات والأخشاب وطواحين الهواء والعربات واللوازم لهم في أشغالهم وهندساتهم وأرباب صنائعهم . ومكان آخر للحدادين [...] وصنعوا السندانات والمطارق العظام لصناعات الآلات من الحديد [...] وبأعلى هذه الأمكنة صناع الأمور الدقيقة مثل البركارات وآلات الساعات والآلات الهندسية المتقنة ، وغير ذلك "[٣] .

رأى الجبرتي أيضاً ، في ما يتعلق بالاقتصاد اهتمام الفرنسيين بالاعمار وبصيانة طرق المواصلات .

يقول :

"وقيدوا [...] أنفاراً منهم [اي الفرنسيين] يتعاهدون تلك الطرق ويصلحون ما يخرج منها عن قالب الاعتدال بكثرة الدوس وحوافر الخيول

---

(١) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٣٤٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٤٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٥١ ، ٣٥٢ .

والبغال والحمير . وفعلوا هذا الشغل الكبير والفعل العظيم في أقرب زمن "[١].

ولقد توقف الجبرتي عند سرعة العمل بالنسبة الى ضخامة المشاريع كما توقف عند نقطة هامة ذات دلالة في ما يتعلق بقيمة الانسان وهي تشغيل العامل مقابل اجرة يتقاضاها على عمله ، ذلك ان قانون السخرة لم يعد معمولاً به عند الفرنسيين وأن العامل ، بمقتضى احترام الفرد وحريته ، يتقاضى اجراً على عمله . ولكن الجبرتي لم ينظر الى الموضوع من هذه الزاوية واكتفى بالقول انهم لا يسخرون احداً ويدفعون للعامل أجرته .

يقول :

"ولم يسخروا أحداً في العمل ، بل كانوا يعطون الرجال زيادة عن أجرتهم المعتادة ، ويصرفونهم من بعد الظهيرة "[٢] .

كانت العلوم التي اتى بها الغرب في حملته ، أبرز ما توقف عنده الجبرتي من مظاهر الحضارة الغربية . ولقد لاقى تطور هذه العلوم وتعدد فروعها بنوع من الدهشة والذهول ؛ فكأنها كانت مجهولة لديه بالكلية او انه كان يجهل بالتمام درجة التطور التي بلغتها . ولقد قال فيها بعد ان شاهدها عن قرب واطلع على دقائقها انها "مما يحير الأفكار" وانها "مما لا تسعه عقولنا" .

وعى الجبرتي أيضاً اهتمام الفرنسيين بنشر هذه العلوم وتشجيعهم لكل من احب الاطلاع عليها . كما اطلع على فروع عديدة من هذه العلوم تشمل الطب والكيمياء والعلوم الطبيعية والعلوم الرياضية والتاريخ والأديان والفلك .

وتجدر الاشارة الى أن موقف الجبرتي من العلوم وغيرها من مظاهر الحضارة الغربية كانت تغلّفه موضوعية المؤرخ مما جعل أمر تحديد هذا الموقف صعباً، فنحن نعرف انه اطلع على هذه العلوم وانها كانت أمراً يجهل تفاصيله

---

(١) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج٤ ، ص ٢٤٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٤٧ .

وطرق العمل به ولكننا لا نلمس موقفاً إيجابياً او استحساناً لما أتى به الغرب في هذا المجال . ولعل عداء الجبرتي لهذا الغرب جعله لا يعترف له بالسبق في هذا الميدان .

يقول في مجال الطب والكيمياء :

"وأفردوا مكاناً في بيت حسن كاشف جركس لصناعة الحكمة والطب الكيماوي ، وبنوا فيه تنانير مهندمة وآلات تقاطير عجيبة الوضع ، وآلات تصاعيد الارواح ، وتقاطير المياه ، وخلاصات المفردات وأملاح الارمدة المستخرجة من الأعشاب والنباتات [...] ولهم فيه امور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا"[١] .

في هذه العبارة الاخيرة فقط يقر الجبرتي بسبق الغرب على الشرق في ميدان العلوم وبضيق العقل الشرقي بالنسبة الى علوم الغرب ، او بقصوره عن فهم هذه العلوم .

وفي موضع آخر :

"وفيه أرسل رئيس الأطباء الفرنساوي نسخاً من رسالة الفها في علاج الجدري لأرباب الديوان لكل واحد نسخة على سبيل المحبة بزعمه ، والهدية ليتناقلها الناس ويستعملوا ما اشار اليه فيها من العلاجات لهذا الداء العضال، فقبلوا منه ذلك وارسلوا له جواباً يشكرون همته في ذلك "[٢] .

ويقول في العلوم الاخرى :

"ولهم تطلع زائد للعلوم وأكثرها الرياضية ومعرفة اللغات"[٣] .

---

(١) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٣٥٠ .

(٢) الجبرتي ، مظهر التقديس ، ص ٢٦٧ .

(٣) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٣٤٩ .

ثم يعدد الجبرتي انواع هذه العلوم :

"وأفردوا للمدبرين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية كالهندسة والهيئة والنقوشات والرسومات والمصورين والكتبة والحساب والمنتسبين حارة الناصرية "[١] .

ولاحظ الجبرتي إتقان صنعة الآلات التي يستخدمها الغرب في علومه ، وكان ينعت ما يراه منها ومن انواع العلوم بالعجيب والبديع . كقوله مثلاً في علم الفلك :

"وعند توت الفلكي وتلامذته في مكانهم المختص بهم الآلات الفلكية الغريبة المتقنة الصنعة وآلات الارتفاعات البديعة العجيبة التركيب العالية الثمن "[٢] .

هذه النعوت التي يطلقها الجبرتي على آلات علم الفلك تؤكد ما قلناه من دهشة وذهول اصاباه لدى اطلاعه على العلوم الغربية وتؤكد ، بطبيعة الحال ، جهل الجبرتي بهذه العلوم وبدرجة تطورها حتى ذلك الوقت .

كما تنبه الجبرتي الى اهتمام الفرنسيين باللغات الاجنبية ومعرفتهم لقواعد اشتقاقها وصرفها مما يسهل عليهم عملية الترجمة الى لغتهم .

يقول :

"وعندهم كتب مفردة لانواع اللغات وتصاريفها واشتقاقها بحيث يسهل عليهم نقل ما يريدون من اي لغة كانت الى لغتهم في اقرب وقت"[٣] .

---

(١) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢٤٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٤٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٤٩ .

ولقد رأى الجبرتي تشجيع الفرنسيين للعلوم ، ووضعها بين أيدي الناس بواسطة الكتب والمكتبات العامة ، والاهتمام بكل من يجدون لديه ميلاً الى المعرفة .

يقول :

"[ان في احد البيوت] جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزان ومباشرون يحفظونها ويحضرونها للطلبة ، ومن يريد المراجعة فيراجعون فيها مرادهم فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين ، ويجلسون في فسحة المكان المقابلة لخازن الكتب على كراسي منصوبة موازية . فيتصفحون ويراجعون ويكتبون حتى اسافلهم من العساكر ، وإذا حضر اليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول الى أعز اماكنهم ، ويتلقونه بالبشاشة والضحك ، واظهار السرور بمجيئه اليهم ، وخصوصاً اذا رأوا فيه قابلية او معرفة او تطلعاً للنظر في المعارف - بذلوا له مودتهم ومحبتهم ، ويحضرون له انواع الكتب المطبوع بها انواع التصاوير وكرات البلاد ، والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات ، وتواريخ القدماء وسير الامم وقصص الانبياء بتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم ، وحوادث اممهم مما يحير الأفكار"(١) .

ولقد لاحظ الجبرتي ارتفاع المستوى الثقافي عند الفرنسيين ، اذ وجد ان المطالعة وحب الاطلاع ليسا مقصورين على النخبة ، بل يشملان كل الفئات وأدنى الفئات من الجنود .

كما توقف الجبرتي عند دأب الفرنسيين في العمل .

يقول :

"ولهم تطلع زائد للعلوم وأكثرها الرياضية ومعرفة اللغات واجتهاد كبير في معرفة اللغة والمنطق ، ويدأبون في ذلك الليل والنهار"(٢) .

---

(١) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٣٤٨.

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٤٩ .

لم تُتح للجبرتي ، في مجال الفن فرصة الاطلاع على انواع عديدة من الفنون ، والذي تعرّف اليه من انواعها هو المسرح الذي استقدمه الفرنسيون ، ولم تكن له فيه اي نظرة ناقدة .

يقول :

"وذلك المكان الذي أنشأوه يسمى في لغتهم بالكمدي [Comédie] وهو عبارة عن محل يجتمعون به كل عشر ليال ليلة يتفرجون به على ملاعيب يعملونها مقدار اربع ساعات من الليل ، وذلك بلغتهم ، ولا يدخل احد اليه إلا بورقة معلومة وهيئة مخصوصة"[(١)] .

في ما يختص بالحياة الدينية ، نعت الجبرتي الفرنسيين بالكفر والدهرية ، فلقد وجدهم لا يتقيّدون بتعاليم دينهم ولا بتعاليم غيره من الأديان السماوية بل ينكرون أركان الإيمان ويقولون بقدم العالم ، ويتّبعون فقط ما تمليه عليهم عقولهم على قاعدة التحسين والتقبيح .

ونعتقد انه كانت للجبرتي فكرة مسبقة عن كفر الفرنسيين قبل احتكاكه بهم مع قدوم الحملة ، إذ نجد صفة الكفر ملازمة لهم منذ بداية حديثه عنهم أي مع بدء حملتهم .

يقول مثلاً :

"وإن من أعظم الدلائل على ما رُميت به مصر ، وحل به لأهلها تنوع البؤس والإصر بحلول كفرة الفرنسيس"[(٢)] .

وفي موضع أخر :

---

(١) الجبرتي ، مظهر التقديس ، ص ٢٦٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤ .

"وأناخت دولة الكفار بكلكلها على هذا القطر العظيم ، وانتشروا في ارجائه انتشار السم في جسد السليم"[١] .

إلا ان هذا الحكم المسبق تثبت صحته لدى الجبرتي مع احتكاكه اليومي بالفرنسيين ، ولقد حاول ان يثبت بطريقة علمية انهم ليسوا على دين وأنهم دهريون يتّبعون ما تستنسبه عقولهم .

يقول تعليقاً على خطاب بونابرت :

"تفسير بعض ما اودعه هذا المكتوب من الكلمات المفككة ، والتراكيب الملعبكة . قوله بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله ولا ولد له ولا شريك في ملكه ، في ذكر هذه الجمل الثلاث إشارة الى انهم موافقون الى الملل الثلاث ، ومخالفون لهم بل وبجميع الملل . موافقون للمسلمين في ذكر التسمية ونفي الولد والشريك ، ومخالفون لهم في عدم الاتيان بالشهادتين وجحد الرسالة ، ورفض الاقوال والافعال الشرعية المعلومة من الدين بالضرورة ، وموافقون للنصارى في غالب اقوالهم وأفعالهم ، ومخالفون لهم في القول بالتثليث وجحد الرسالة ايضاً ، ورفض ديانتهم وقتل القسوس ، وهدم الكنايس ، وموافقون لليهود في التوحيد ، فإن التوحيد لا تقوله اليهود بالتثليث ، وإنما هم مجسمّة مخالفون لهم في ديانتهم ، والذي تحرر من عقايدهم انهم لا يقفون على دين ، ولا يتفقون على ملة ، فكل واحد منهم ينحو ديناً ، يخترعه بتحسين عقله "[٢] .

وفي موضع أخر :

"قوله (وخربوا كراسي البابا) بهذه الفعلة خالفوا النصارى [...] فهؤلاء الأقوام خالفوا النصارى والمسلمين ، ولم يتمسكوا من الأديان بدين . فتراهم دهرية معطلين[٣] . وللمعاد والحشر منكرون . وللنبوة والرسالة جاحدون.

---

(١) الجبرتي مظهر التقديس ، ص ٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣١ ، ٣٢ .

(٣) معطلون .

ويقولون بقدم العالم [...] وظهور الملل وانتقال الدول بموجب طبع القرانات وامتزاج المناظرات . وربما اعتقدوا تناسخ الارواح الى غيرها من الاشباح ، ومثل ذلك من الخيالات وانواع الضلالات، وعقيدتهم السالكون فيها تحكيم العقل ، وما تستحسنه النفوس، بحسب الشهوات"[١] .

تعرّف الجبرتي على ملامح من الحياة الاجتماعية الغربية من خلال جنود الحملة الفرنسية وافرادها ، فجاءت الصورة التي كوّنها عنهم في هذا المجال جزئية او ناقصة . وبرغم ما اشتملت عليه من مظاهر غربية صحيحة الا انها تعاني من النقص والاضطراب في كثير من المواضع .

فالجبرتي لم يدخل في تفاصيل الحياة الاجتماعية ، ولا في تفاصيل اي من المظاهر الحضارية الاخرى ، ولكن هذا التقصير اكثر ما يبدو واضحاً في الجانب الاجتماعي لأن الفرنسيين ، بفضل وجودهم الحسي في مصر ، قد منحوه فرصة للإطلاع على عاداتهم وطرائق عيشهم عن كثب .

ولقد كانت للجبرتي تعليقات على نواح اجتماعية عدة ، كالمأكل والمسلك وتنظيم الدولة للأمور الاجتماعية والمرأة .

تعرّف الجبرتي على بعض عادات غربية جديدة في المأكل وأدرك أن هذه العادات تتبع نسقاً معيناً محدداً متعارفاً عليه في الغرب . كما تعرف على فكرة جديدة في هذا المجال ، نعتقد انه لم يكن له عهد بها قبل ذلك وهي المطعم .

يقول :

"وفتح بعض الافرنج البلديين بيوتاً يصنع فيها أنواع الأطعمة والأشربة على طرائقهم في بلادهم [...] فإذا مرت طائفة بذلك المكان تريد الأكل دخلوا الى ذلك المكان . وهو يشتمل على عدة مجالس دون ، وأعلى . وعلى كل مجلس علامته ومقدار الدراهم التي يدفعها الداخل فيه ، فيدخلون الى ما يريدون من المجالس وفي وسطه دكة من الخشب ، وهي الخوان التي يوضع عليها الطعام ، وحولها كراسي ، فيجلسون عليها ويأتيهم الفراشون بالطعام على قوانينهم ،

---

(١) الجبرتي مظهر التقديس ، ص ٣٤ .

فيأكلون ويشربون على نسق لا يتعدونه ، وبعد فراغ حاجتهم يدفعون ما وجب عليهم من غير نقص ولا زيادة ويذهبون لحالهم "[١] .

ولقد توقف الجبرتي عند تعاطيهم الخمور ، فذكر انهم يتعاطونها بنسبة معينة ، وأن من يسكر منهم لا يخرج من بيته حتى لا يخل بالقوانين او براحة الآخرين وانه اذا فعل ذلك يُعاقب عليه .

يقول :

"كما ان لهم عناية أشد من ذلك في بذل الامور في الخمور والتردد الى حانات الراح"[٢] .

وأيضاً :

"ومن طبعهم في الشرب انهم يتعاطون لحد النشوة وترويح النفس فإن زادوا عن ذلك الحد لا يخرجون من منازلهم ومن سكر وخرج الى السوق ووقع منه امر مخل عاقبوه وعزروه"[٣] .

لمس الجبرتي في حقل التنظيم الداخلي ، اهتمام الجهات المسؤولة بالمحافظة على النظافة العامة وعلى إنارة الطرق ومداخل البيوت والدكاكين ، منعاً لتفشي الاوبئة وانتشار السرقة .

يقول :

"نادوا بوقود قناديل سهارى بالطرق والاسواق ، وأن يكون على كل دار قنديل ، وعلى كل ثلاثة دكاكين قنديل ، وأن يلازموا الكنس والرش ، وتنظيف

---

(١) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج٤ ، ص ٣٠٤ .

(٢) الجبرتي ، مظهر التقديس ، ص ٣٤ .

(٣) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج ٥ ، ص ١٨ .

الطرق من العفوشات والقاذورات "[١] .

"ونادوا أيضاً بنشر الثياب والأمتعة والفرش بالاسطحة عدة أيام، وتبخير البيوت بالبخورات المذهبة للعفونة - كل ذلك للخوف من حصول الطاعون وعدوه[٢] ، ويقولون : إن العفونة تنحبس بأغوار الارض، فإذا دخل الشتاء وبردت الاغوار بسريان النيل والأمطار والرطوبات - خرج ما كان منحبساً بالارض من الابخرة الفاسدة فتعفن الهواء فيحصل الوباء والطاعون ، ومن قولهم ايضاً : إن مرض مريض لا بد من الإخبار عنه فيرسلون من جهتهم حكيماً للكشف عليه إن كان مرضه بالطاعون او بغيره ، ثم يرون رأيهم فيه "[٣] .

في مجال السلوك والأخلاق ، علّق الجبرتي على تفلّت الفرنسيين وحبهم للهو والخلاعة ، وعدم مبالاتهم بكشف العورات ، واختلاطهم مع النساء للهو .

يقول :

"ولا يبالون بكشف العورات ، مع قبحه في العقل والنقل ، فمتى دعت احدهم الحاجة قضاها في أي مكان اتفق ، ولو بمرأى من الناس [...] ويطؤون كلما تيسر لهم من النساء "[٤] .

يقول أيضاً :

"أحدثوا بغيط النوبى المجاور للأزبكية أبنية على هيئة مخصوصة منزهة يجتمع بها النساء والرجال للهو والخلاعة في اوقات مخصوصة ، وجعلوا على كل من يدخل إليه قدراً مخصوصاً يدفعه أو يكون مأذوناً

---

(١) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٣١٨ .

(٢) وعدواه .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٢١ ، ٣٢٢ .

(٤) الجبرتي ، مظهر التقديس ، ص ٣٤ .

وبيده ورقة "[١] .

ولقد توقف الجبرتي عند المرأة الفرنسية ، فلم يرَ فيها الا تجسيداً للخلاعة والفجور وسبباً في تفلت بعض النساء المصريات وخروجهن عن الحياء.

ولقد علق الجبرتي على سفور المرأة الغربية ، وعلى تبرّجها وعلى تفننها في لباسها ، كما توقف عند أخلاقها وسلوكها فوجدها قد خرجت عن حدود الحشمة والحياء في تصرفاتها ، من ركوب الخيل وممازحة الرجال والقهقهة . وإذا شئنا أن نفهم موقف الجبرتي من المرأة الغربية كفانا ان نذكر وصفه للنساء المصريات اللواتي اختلطن بالنساء الفرنسيات بالفجور .

يقول :

"لما حضر الفرنسيس الى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملوّنة ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميري والمزركشات المصبوغة ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقاً عنيفاً مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة .

فمالت اليهم نفوس اهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش ، فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الاموال لهن وكان ذلك التداخل اولاً مع بعض احتشام وخشية عار ومبالغة في اخفائه ، فلما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر وحاربت الفرنسيس بولاق وفتكوا في اهلها وغنموا اموالها وأخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات صرن مأسورات عندهم ، فزيّوهن بزي نسائهم وأجروهن على طريقتهن في كامل الاحوال ، فخلع اكثرهن نقاب الحياء بالكلية، وتداخل مع اولئك المأسورات غيرهن من النساء الفواجر "[٢] .

ومما يؤكد شجب الجبرتي والمصريين لهذا السلوك ، حكمهم بالقتل على

---

(١) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٣٤٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

ابنة الشيخ البكري وعلى من عداها ممن اختلطن بالفرنسيين وسلكن مسلكهم .

يقول :

وفي يوم الثلاثاء رابع عشرينه طُلبت ابنة الشيخ البكري وكانت ممن تبرّج مع الفرنسيس بمعينين من طرق الوزير [يوسف باشا] فحضروا الى دار أمها بالجودرية بعد المغرب واحضروها ووالدها فسألوها عما كانت تفعله ، فقالت اني تبت من ذلك فقالوا لوالدها ما تقول أنت ؟ أقول اني بريء منها ، فكسروا رقبتها ، وكذلك المرأة التي تُسمى هوى التي كانت تزوجت نقولا القبطان ثم اقامت بالقلعة وهربت بمتاعها وطلبها الفرنساوية [...] فلما دخل المسلمون وحضر زوجها مع من حضر وهو اسمعيل كاشف المعروف بالشامي امنها وطمنها ، وأقامت معه أياماً فاستأذن الوزير في قتلها فأذنه فخنقها في ذلك اليوم ايضاً ومعها جاريتها البيضاء ام ولده، وقتلوا أيضاً امرأتين من اشباههن "[1] .

والذي نستخلصه مما تقدّم هو أن صورة الغرب عند الجبرتي قد اقتصرت على وجود الفرنسيين الحسي في مصر ممثلاً بالحملة الفرنسية وما نجم عنها من مقررات وتحركات وسلوك شاهدها الجبرتي وعلق عليها . ولقد لاحظنا في مواضع عديدة أن الجبرتي كان يتوقف عند بعض المظاهر الحضارية الغربية التي كانت جديدة بالكلية بالنسبة إليه، فكان يتكلم عليها ويحاول ان يشرحها ولكن حديثه كان يقتصر على شكلها ولم يكن يتناول خلفيتها أو دوافعها ؛ فلقد حدثنا على مجلس العلماء الذي ألفه الفرنسيون للنظر بأحوال الناس دون ان تراوده فكرة الديمقراطية أو تفويض الشعب لأشخاص ينوبون عنه في اتخاذ القرارات ، كذلك حديثه على العلوم ، فلقد تركّز على الاماكن والابنية التي خصصها الفرنسيون للدراسة فكان يقول "وأفردوا مكاناً" لهذا العلم أو ذاك .

ثم إن الموضوعية التي تكلم بها الجبرتي على الحضارة الغربية تحجب عنا حقيقة مشاعره وموقفه الا فيما يختص بالدين والاخلاق فإنه لم يتوان عن شجبهم ونعتهم بأسوأ الألفاظ .

---

(١) الجبرتي ، عجائب الآثار، ج ٥ ، ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

وبغض النظر عن مشاعر الجبرتي وموقفه من الغرب ، فإن درجة فهمه لهذا الغرب لم تكن واضحة ، ولم تكن نفسها في كل المجالات : فهو حين يصفه بالدهرية يبدو تام الاستيعاب لمبدأ الذرية أو النيشرية وللقوانين الطبيعية ، وحين يتكلم على العلوم يبدو مندهشاً متردداً فيصفها بأنها تحيّر الافكار وأن عقول المصريين لا تسعها ، وهنا اعتراف بسبق الغرب في العلوم ، الا انه في مجال السياسة يمّر أمام مبادىء جوهرية دون ان يعيها ، كنظام الجمهورية مثلاً او نظام الحكم الديمقراطي ، أو مسألة المساواة التي يرفضها بحجة ان الله قد فضل بعض الناس على بعض .

ولقد كان الجبرتي لا يأمن جانب الفرنسيين رغم كل ما أبدوه من تنظيم للبلاد وعداء للماليك وحسن معاملة للمسلمين ، فكان يشكك بنواياهم ويرى انهم يظهرون غير ما يضمرون وأنهم بمعاملتهم الجيدة للمسلمين إنما يحاولون استمالتهم لتسهيل احتلال البلاد .

يقول :

"وقد كانت الفرنسيس حين حلولهم بالاسكندرية كتبوا مكتوباً وطبعوه وأرسلوا ضمنه نسخاً الى البلاد التي يقدمون عليها تطميناً لهم ، ومكيدة لئلا تعصى البلاد وتحاربهم ، فأوهموهم فيه أنهم قدموا من طرف السلطان ، وأنهم جاءوا ليزيلوا عنهم الظلم "[1] .

وفي تعليق على خطاب نابوليون :

"قوله (انني ما قدمت إليكم إلا لكيما أخلص حقكم من يد الظالمين) هذه أول كذبة ابتدرها وفريّة ابتكرها "[2] .

ويقول الجبرتي هذا ، رغم حديثه المفصل على حسن معاملة الفرنسيين للمسلمين واحترامهم لشعائرهم الدينية واحتفالهم بأعيادهم وانفاقهم الاموال

---

(١) الجبرتي ، مظهر التقديس ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٢ .

على فقرائهم . وفي ذلك يورد نص الكتاب الذي بعث به علماء مصر الى السلطان .

يقول :

"بعد الصدور ذكر ورودهم وقتالهم مع المماليك وهروبهم ، وأن جماعة من العلماء ذهبت اليهم بالبر الغربي فأمنوهم ، وكذلك الرعية دون المماليك ، وذكروا فيه انهم من اخصاء السلطان العثماني وأعداء أعدائه ، وأن السكة والخطبة باسمه ، وشعائر الاسلام مقامة على ما هي عليه وباقية بمعنى الكلام السابق في قولهم : انهم مسلمون ، وانهم محترمون القرآن والنبي ، وأنهم أوصلوا الحجاج المتشتتين وأكرموهم، وأركبوا الماشي وأطعموا الجيعان ، وسقوا العطشان ، واعتنوا بيوم الزينة يوم جبر البحر ، وعملوا له شأناً ورونقاً استجلاباً لسرور المؤمنين ، وانفقوا اموالاً برسم الصدقة على الفقراء ، وكذلك اعتنوا بالمولد النبوي وانفقوا اموالا في شأن انتظامه [...] وهم أيضاً مجتهدون في إتمام مهمات الحرمين ، وأمرونا أن نعلمكم بذلك والسلام"[1] .

وبرغم كل ما ابداه الفرنسيون من ايجابية ووداعة ازاء المسلمين ظل الجبرتي يتعجب لأن نوعاً من الريبة والتشكيك في نواياهم ظل يخامره .

على عكس الجبرتي ، لم يكن نقولا الترك حذراً تجاه الفرنسيين او مشككاً في صدق نواياهم تجاه المسلمين ، بل لقد كان كتابه الحملة الفرنسية على مصر والشام بمثابة رسالة في مدح بونابرت والفرنسيين . تكلم فيها ، وبكثير من الايجابية ، على الثورة الفرنسية وما رافقها من أحداث ، وعلى الحملة الفرنسية وما ترتب عنها من مقررات وتحركات نالت في معظمها تقديره وإعجابه .

وللترك قصيدة في مدح بونابرت[2] تدل على اعجابه الشديد بهذا القائد، وصفه فيها بالاسد وبالشهم ونعت الدولة الفرنسية فيها بانها "شهيرة بالافتخار" .

---

(١) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

(٢) راجع ديوان نقولا الترك ، ص ١٨٠ – ١٨٢ .

ولقد كان وعي نقولا الترك للغرب مختلفاً عن وعي الجبرتي له ، إذ اقتصر مفهوم الغرب عند الجبرتي على وجود الفرنسيين الحسي في مصر ممثلاً بالحملة الفرنسية وما بدا منها من مستجدات على صعيد السياسة والاقتصاد والعلم والاجتماع وغيرها . بينما ذهبت نظرة نقولا الترك الى أبعد من حدود الحملة ، ذهبت إلى حدود الثورة الفرنسية في ديارها ، وإلى بعض من دوافعها ونتائجها ، مما ساعده على فهم اعمق للغرب . إلا انه لم يذهب الى تحليل مبادىء الثورة أو الى تحليل بعض من عناصرها بل اكتفى بنقلها الينا نقلاً ؛ ولعله لم يستطع فهمها لأننا نجده في بعض الاحيان يستعيض عن بعض مفردات غربية حديثة ، تتعلق بالمفاهيم الغربية الحديثة ، والتي لم تكن للشرق العربي معرفة بها الى ذلك الوقت ، بكلمات مألوفة "ككلمة جمهورية التي ترجمها الترك بجمهور والتي استبدلها ، في تعبيره الخاص ، بكلمة مشيخة التي تتماشى مع ملكية ذات سلطة محدودة "[١] .

وعلى الرغم من الاختلاف بين نظرتي الجبرتي والترك ، فلقد جاءتا متممتين واحدتهما للأخرى ، إذ عمد الجبرتي الى مشاهدة الفرنسيين وأتانا بتقرير وصفي لتحركاتهم وأخلاقهم وعلومهم ، فجاء غالب كلامه عنهم في إطار التحركات التي قاموا بها اثناء الحملة ، في حين كان تركيز الترك على مبادىء الفكر الفرنسي ممثلاً بأفكار الثورة الفرنسية ؛ فالغرب كما رآه الترك هو غرب الثورة الفرنسية أما غرب الجبرتي فهو غرب الحملة الفرنسية .

ولقد كان لعقيدة كل من المؤرخين الدينية أثر في فهمه للفرنسيين وفي توجيه نظرته اليهم ، ففي حين لا يكف الجبرتي عن نعتهم بالكفر والدهرية والخلاعة ، يقترب الترك منهم من دون خوف ويحاول أن يفهم أفكارهم وخلفيتهم .

وكان لا بد للترك ، بغية فهم خلفية الفرنسيين ، من فهم فكرهم السياسي وعقائدهم والنهج الذي يسيرون عليه في حكم بلادهم .

إن أول ما يبدأ به الترك كتابه هو ذكر قيام الجمهورية الفرنسية

---

(١) Ibrahim Abu- Lughod, Arab Rediscovery of Europe, New Jersey, 1963.

ويسميها المشيخة . ويذكر الترك انه يؤرخ لأحداث الثورة لانتفاع طلاب العلم وليعرّف اهل بلاده باحوال أوروبا .

يقول :

"فحق لنا ان نؤرخ في هذا الكتاب ، لانتفاع الطلاب ، ما حدث من التغيير والانقلاب مما اجرته يد الاقدار في هذه الامصار ، ومما اذنت به العزة الالهية بظهور المشيخة الفرنساوية ، وما تكوّن بسببها من الفتن في البلاد الافرنجية وديار الرومية وقتل سلطانهم وخراب بلدانهم وانتشار شانهم ، وربحهم من بعد خسرانهم ، وذلك بظهور فرد افرادهم وقايد اجنادهم ، الليث الشديد والبطل الصنديد ، امير الجيوش الامير بونابرته "(١) .

فلقد تفتحت عين الترك على مفهوم الجمهورية أو المشيخة كما يسميها كبديل او كخيار جديد الى جانب الحكم الفردي المطلق ، فاطلع على نواة الحكم الديمقراطي من مشاركة الشعب في الحكم ، الى سلطة الملك المقيدة بالقوانين وبآراء المجلس النيابي ، الى الحرية والعدل والمساواة بين الناس ، وذلك دون ان يورد هذه المفاهيم ضمن نظرة منسقة معمقة قد وعت تماماً مبادىء الفكر الفرنسي السياسي والاجتماعي .

ومن خلال حديثه على الثورة الفرنسية ، نجده مُلماً بالكثير من مبادئها ولكن دون ان يناقشها او يتعمق في دوافعها وأهدافها ، وغالباً ما اكتفى بعرضها ورواية الاحداث التي رافقتها .

لقد ذكر الترك ظروف الثورة الفرنسية من استياء الشعب من الحكم الفردي واجماعه على ان ذلك ضار بالبلاد ومطالبتهم للملك بمشاركته في الحكم عن طريق ديوان يُنتخب من مشايخ الشعب ثم قبول الملك بالشروط خوفاً من العاقبة ، وأخيراً محاولته الفرار ومقتله .

يقول :

---

(١) نقولا الترك ، الحملة الفرنسية على مصر والشام ، تحقيق ياسين سويد ، دار الفارابي ، بيروت ، الطبعة الاولى ، ١٩٩٠ ، ص ٢٧.

"في سنة ١٧٩٣ مسيحية [...] حدث في مدينة باريز بلبلة عظيمة ، اذ هاج شعب هذه المملكة هياجاً عظيما [...] وطلبوا نظامات جديدة وترتيبات حديثة وادعوا ان وجود السلطان بصوت منفرد احدث خراباً عظيماً في المملكة، وان اشرافها يتنعمون في خيراتها وباقي شعوبها يكابدون اتعابها ومشقاتها . فلأجل ذلك نهضوا جميعهم سوية ، تلك الشعوب الفرنساوية ، ودخلوا الى سراية الملك فخاف منهم خوفاً عظيماً مع ارباب دولته ، ويسألهم عن مرامهم والسبب الداعي الى قيامهم ، فأعلموه انه ، من الآن وصاعداً ، لا يبرز الملك امراً ويبث رأياً من تلقاء ذاته ، بل يكون بث الاحكام والترتيب والنظام بموجب ديوان عظيم ومحفل جسيم ، ويكون الملك له الصوت الاول ، ثم بعده مشايخ الشعب الذين عليهم المعول ، فبذلك يهون الصعب ويرتفع الظلم عن الشعب [... فقبل الملك بالشروط] خوفاً من الشعب ، وختم لهم الشروط التي قدموها "[1] .

ولا يخفى ما في هذا الكلام من معان ومفاهيم جديدة مكثفة تعرّف إليها الترك ونقلها الى لغته : ففي قيام الشعب تكمن يقظته وحقه بأن يثور ليطالب بما له ، فللشعب حقوق يطالب بها . ثم ان هذا الشعب يطالب بانظمة جديدة تكون سلطة الحاكم فيها مقيدة وتكون للشعب فيها مشاركة في الحكم من خلال ممثلين له ، كما ان هذا الشعب يرفض الاقطاع وتمتع الاقلية على حساب الاكثرية . وفي مطالبة الثورة برفع الظلم عن الشعب تأكيد لمبدأ العدل ، أحد أهم مبادئها . ولما اتضحت خيانة الملك لشعبه ، حكم الشعب عليه بالقتل ونفذوا حكمهم وجعلوا ذكرى قتله عيداً وطنياً يحتفلون به .

يقول :

"وأما الشعب فكان عنده سرور عظيم ، وصنعوا من قبل ذلك اليوم عيداً في كل سنة تذكاراً لقتل الملك وانتصار الشعب ، وكان ذلك في مبادىء شهر أيلول في سنة ١٧٩٣ وجعلوه بدو سنتهم . ولقبّوه تاريخاً للمشيخة "[2] .

---

(١) الترك ، الحملة الفرنسية ، ص ١٨ ، ١٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٤ .

كل هذه المفاهيم كان الترك أول من نقلها الى العربية بتفاصيلها وأول من وعى خطرها بالمفهوم الغربي ، والجدير بالذكر ان حديث الترك على الثورة الفرنسية هو مقدمة لحديثه على الحملة الفرنسية على مصر التي حملت مبادىء تلك الثورة المنادية بالحرية والمساواة ، والمتمثلة في مصر بشخص بونابرت .

يقول الترك نقلاً عن بونابرت :

"ثم حضرت قدام أمير الجيوش أعيان البلد ، فتوسلوا اليه فترحّب بهم وأمنهّم ، واختار منهم سبعة انفار من الاعيان الكبار [...] وقال لهم انه على مقتضى الحرية يجب ان تتقلد الاحكام عقلاء الرعية ، لان الخلق عند الله كل بالسوية ، وليس يتفضل احد على الآخر إلا بالعقل والنية "[1] .

فالناس احرار يحكمون أنفسهم عبر ممثلين لهم ، وهم متساوون أمام الله ولا يتفاضلون الا بالعقل .

ولقد كان الترك شديد الاعجاب بعدل الفرنسيين ومساواتهم بين الناس . فتوقف عند حسن سياستهم في تنظيم البلاد وإقرار الأمن .

يقول :

"وقد كان الفرنساويون قد جذبوا اكثر الناس بحسن أحكامهم العادلة، وعدم ميلهم للمشاكلة ، وحسن سياستهم وعدم خيانتهم ، وحبهم المفرط للمسلمين ورفع المظالم عن الفلاحين ، وضبط عساكرهم وتواضع اكابرهم ، وصدق كلامهم حسن زمامهم ، وانطلاق الحرية لساير الرعية ، واعطاء الامان في كل مكان ، والتفاتهم العجيب لنظم البلاد ، وودّهم الغريب لراحة العباد ، وقد قطعوا اثار اللصوص والنهابين والعربان الخطافين ، واتقنوا الاحكام باحسن نظام ، وتظاهروا بالكرم السخاء ورخص القوت والرخاء "[2] .

---

(١) الترك ، الحملة الفرنسية ، ص ٢٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦٣ .

وفي موضع آخر :

"وكثر في زمانهم ، في تلك الاقاليم ، الرخص والخير العميم ، وعدم الظلم والعدوان ، واظهار العدل والإيمان "[١] .

كذلك قوله :

"ونشروا العدل وحسن الأحكام وقد احتووا الشرايع الحقيقية على التمام"[٢] .

وفي قوله هذا ، يؤكد الترك على إعجابه بالأحكام الغربية ، وعلى انها الأحكام الحقة التي يجب ان يُعمل بها في كل مكان .

لم يتوقف الترك مطولاً عند المظاهر الاقتصادية الغربية ، والواقع ان حديثه على الغرب يكاد يقتصر على اخبار الثورة الفرنسية؛ أما باقي مظاهر الحضارة الغربية فإنه لم يولها كبير اهتمام ، ولا يتعدى ما جاء به في هذا السياق بعض ملاحظات متفرقة على إجراءات ومقررات وضعها الفرنسيون موضع التنفيذ لتسيير الأمور في البلاد المحتلة .

يقول :

"ثم ان امير الجيوش بونابارته رتب ديواناً ثانياً سبعة انفار من التجار ، ومعهم رجلاً فرنساوياً مترجماً ، وذلك ليكون ديوان البحر ، وافرز لهم محلات معلومة لاستماع دعاوى التجار والمتسببين "[٣] .

ومن ذلك نستخلص ان الترك قد وعى دور الدولة والقضاء في تنظيم أمور الاقتصاد ، وحل التنازعات التي تنشب بين العاملين في هذا الحقل .

---

(١) الترك ، الحملة الفرنسية ، ص ٨٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٨ .

وفي حقل العلوم ، كان الترك ايضاً شديد الاختصار فنحن لا نجد سوى ذكر للمطابع التي احضرها بونابرت معه من روما .

يقول :

"امر امير الجيوش بان تفرز محلات معينة لاجل المطابع التي أحضرها معه من رومية ، وهي تطبع بجميع اللغات [...] وجعل لذلك محلات على شاطىء اليزبكية "(١) .

كما نجد حديثاً على تقدم التكنولوجيا وفنون الحرب التي يستخدمها الفرنسيون في القتال . ولقد نعت الترك هذه الفنون بالغريبة والعجيبة واعياً تفوق الغرب على الشرق في هذا المجال :

يقول :

"وانتشب الحرب والقتال ، [بين المماليك والغز من جهة وبين الفرنسيين من جهة ثانية] وابتدا ذلك الجنرال يروغ روغ المحتال ، حتى تملك في المجال ، ودهمهم بالقنابر والكل والرصاص الغير المحتمل ، وبدا يريهم فنون الحرب الغريبة ، وانواع الهول العجيبة ، التي لم تدركها العربان ، ولا تعرفها الغز والفرسان "(٢) .

واقترن حديث الترك على الحياة الدينية الغربية بحديثه على الثورة الفرنسية ، فلقد تطرق لهذا الجانب على ضوء ممارسات الثورة الفرنسية ، ولم يحدثنا على العبادات والشعائر الدينية الغربية ، أو على غيابها في الغرب كما فعل الجبرتي . ويمكن تفسير ذلك بانتماء الترك الديني ، اذ ان ما يقوم به الفرنسيون من شعائر وعبادات مألوف لديه لا يستحث فضوله ولا يشكل جدلية مع تراثه . وحين يتكلم ، من جهة ثانية ، على ثورة الفرنسيين على الكنيسة فإنه لا يتكلم على العلمانية أو على الدهرية وانما يكتفي بسرد

(١) الترك ، الحملة الفرنسية ، ص ٣٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٦ ، ٥٧ .

الاحداث سرداً موضوعياً ، دون ان يذكر رأيه الشخصي في ذلك ودون أن يحاول تفسير ثورة بونابرت على البابا وعلى الكنيسة .

يقول :

"وغيروا الاشهر النصرانية ورتبوها أشهراً جديدة وسموها اسامي مختلفة وأبقوها ثلثين يوماً على خلاف عدتها الاولى وفي ذلك الوقت رفضوا الديانة واقفلوا الكنايس والأديرة الرهبانية ، وقتلوا الرهبان والراهبات وعدة من الأساقفة ، ورموا الأيقونات ، وكسروا الصلبان "[١] .

كذلك قوله :

"سار [بونابرت] بالجيوش الى مدينة رومية العُظمى . وبعد حروب شديدة وأيام عديدة مع عساكر البابا ، تملك روميه وهزم البابا ، واستولى على كنوزه وذخائره ، وسلب اموال اهل الجزيرة ، وخرب نظام تلك المدينة الجليلة ، ورهان طغمة الاكلريكين والرهبان ، وازدرى بالذخاير والصلبان ، وكان اضطهاد عظيم على المسيحيين . وكثير من أهل رومية تبعوا رأي الفرنساوية "[٢] .

وفي هاتين العبارتين تأكيد على رفض الفرنسيين للكنيسة وللبابا ، وفيهما أيضاً إشارتان خفيّتان أساسيتان في تحديد نظرة الترك الى الغرب : الاولى قوله "وفي ذلك الوقت رفضوا الديانة" مما يدل على أن الفرنسيين قد رفضوا الديانة لوقت محدد وبهدف محدد ولكنه لا يقول لنا ما هو هذا الهدف. والثانية قوله "وكان اضطهاد عظيم على المسيحيين" ثم إلحاقها بالقول : "وكثير من اهل روما قد تبعوا الفرنسيين" وكأنه قد رأى في أعمال الفرنسيين شيئاً مقنعاً جعل أهل روما ينضمون إليهم ولو كانوا ضد البابا .

---

(١) الترك ، الحملة الفرنسية ، ص ٢٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٦ .

ثم يذكر الترك خبر مصالحة نابوليون مع البابا واشهار إيمانه بالمسيح:

"ومن بعد هذه الانتصارات الجزيلة التي تمّت بأيام قليلة ، كتب القنصل الاول بونابارت الى البابا سلطان رومية كتاباً بالصلح والسلام ، ويردّه لكرسيه بالعز والاكرام . وفتح "الكنايس جميعها في ساير بلاد فرنسا . واشهر ايمانه بالمسيح ، واعترف جهاراً امام كل الشعوب بهذا الدين الصحيح. وانتشر ذلك في كامل البلاد الافرنجية "[1] .

وذلك يرجح قولنا انه اراد بعبارة "في ذلك الوقت" أمراً ما ، ربما كان ان نابوليون قد اراد بمهاجمة الكنائس ورجال الدين ، تبليغ رسالة معينة ، أو انه اراد ان يحجّم سلطتهم ريثما يثبت مبادىء ثورته. والا فما معنى تعديه على البابا ثم مصالحته له ، وما معنى حديث الترك على هذين الموقفين ؟ وهل كان الترك مجرد مؤرخ للأحداث لا يقدر على حل رموزها ؟

لم يول الترك الجانب الاجتماعي من الحضارة الغربية اهتماماً ، باستثناء حديث عابر على اهتمام الفرنسيين بمكافحة اللصوص ، والمحافظة على نظافة البيوت والطرق وانارتها ، وهي امور تتعلق بالتنظيم الداخلي أكثر من تعلقها بالحياة الاجتماعية بمعناها الحقيقي .

يقول :

"ان امير الجيوش قسم البلاد خطوطاً وجعل لكل خط حاكماً فرنساوياً [...] وانقطعت جنس اللصوص والخطافين والعربان والسراقين ، وكانت حكام الخطوط في كل سبة [كذا] يطلقون المنادات على الرعايا بكناسة الطرقات والشوارع ورش الماء لاجل النظافة ونظام الطرقات ، ورسموا ان على كل باب بيت او باب وكالة يكون قنديلاً شاعلاً كل الليل . وكانت حكام الخطوط تدور في الليل ، فكل باب لم يجدوا عليه قنديلاً فكانوا يضربون عليه مسماراً وفي الغد يقع على صاحبه القصاص ، وكانت المدينة تضيء في الليل كالنهار "[2] .

---

(١) الترك ، الحملة الفرنسية ، ص ١٤٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٩ .

كان نقولا الترك ، وعلى عكس الجبرتي ، شديد الاعجاب بمعاملة الفرنسيين للمسلمين ، كبير الثقة بنواياهم ولقد توقف مطولاً عند هذا الموضوع . فدخل ذلك ضمن نظرته الى الغرب . لقد كان الترك مطمئناً الى هذا الغرب ولم يُبد حياله الحذر الذي أبداه الجبرتي . فهو يتوسع في الحديث على الاعمال الايجابية التي قام بها الفرنسيون لخدمة المسلمين فلقد حرروا اسرى المسلمين في مالطة، واهتموا بالحج وبالحجاج وبأعياد المسلمين وبالمولد النبوي خصوصاً .

يقول :

"وبعد توليهم على مدينة مالطة ، رفعوا منها الحكام الكوليرية الذين كانوا من قبل ساير الملوك الافرنجية ، واطلقوا المأسورين بها من الاسلام وارسلوهم الى بلدانهم بالسلام ، واوعدوهم بان ما عاد يسير استيئسار على الاسلام من المالطية على الدوام ، ثم امرهم ان يبشروا بذلك في جميع بلدان المسلمين ويشكروا بذلك فضل الفرنساوية "[1] .

وفي موضع آخر :

"ان امير الجيوش احضر مصطفى اغا كتخدا باكير باشا وآمنه والبسه فروًا ، وجعله أمير الحاج . وأمره ان يباشر لوازم الحاج وما يحتاج إليه "[2] .

كذلك :

"ان امير الجيوش ، بعد تملكه القاهرة ، في اثني عشر ربيع اول كان مولد النبي محمد . فصنع ، في ذلك الأوان ، مولداً عظيماً على بركة اليزبكية كعادة اهل القاهرة . وكانت ليلة عظيمة ، لأنه صف جميع العساكر الموجودة داخل القاهرة صفوفاً ، بطبولهم والآلات الموسيقية ، وأمر بحراقات عظيمة ،

---

(١) الترك ، الحملة الفرنسية ، ص ٢٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٩ .

وضرب مدافع كثيرة "[١] .

ولقد نوّه الترك بأن الفرنسيين قد سايروا المسلمين في كثير من الامور ، كقولهم مثلاً بتفضيلهم للإسلام على غيره من الأديان وللمسلمين على غيرهم من الأمم .

يقول :

"وقد ايقنت الفرنساوية بالتهلكة بعد المملكة [عندما احترقت سفينتهم العظيمة في عرض البحر بعد مداهمة الانكليز لها] لحجز الامداد عنهم ونفور الاسلام منهم . لان الفرنساوية قد استعملت احتيالات كثيرة ، وسلكوا مسالك غزيرة لأجل الضرورة ، كاشتهارهم بالاسلامية ونكرانهم النصرانية ، واظهارهم للحرية واقرارهم بالاتحاد مع الدولة العثمانية . وانهم باذنهم دخلوا الديار المصرية ، وانهم مع الاسلام على اخلص طوية وأصلح نية ، ويرغبون راحتهم ويحبون ديانتهم "[٢] .

ولكن ذلك لم يدفع الترك إلى الحذر من الفرنسيين أو توجيه النقد إليهم ، فلقد كان شديد الإعجاب بحكمهم وسياستهم العادلة ، وحسن أحكامهم ونشرهم للأمن والرخاء . كما رأى ان الفرنسيين قد لجأوا الى المسايرة لجذب المسلمين إليهم لأن هؤلاء لا يعترفون بالفضل الا لمن أشهر ولاءه وتأييده للإسلام والمسلمين .

يقول :

"وكان الفرنساوية مؤانستهم غريبة وطول اناتهم عجيبة . وكانوا أحسن سلوكاً من ساير الجنوس . واشهروا بالامن وطولة البال وطيبة النفوس، ونشروا العدل وحسن الأحكام . وقد احتووا الشرايع الحقيقية على

---

(١) الترك ، الحملة الفرنسية ، ص ٤٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٥ .

التمام . ومع كل ذلك قلوب الاسلام غير آمنة والاحقاد في ضمايرهم كامنة . ويشتهون لهم المهالك والوقوع في أضيق المسالك ، فهذا ما ألجأ امير الجيوش الى المخافة ، فبدأ الاحتيال بحسن الرقة واللطافة، لجذب القلوب وتحصيل المطلوب . وكان هذا الامير المشتهر اسد من الاسود ، ونادراً في الوجود . رهط من الارهاط العظام ، حكيماً عليماً بمكايد الايام "[١] .

عرف نقولا الترك أثر الثورة الفرنسية : فكرها وأحداثها ونتائجها في تشكيل الصورة التي يُرى الغرب من خلالها ، وأدرك أن فهم هذا الغرب يكون من خلال فهم الثورة الفرنسية .

وبالرغم من ان الترك لم يدخل في التفاصيل ، وانه لم يقدّم لنا نظرية متكاملة عن فكر الثورة وعن مفاهيمها الأساسية ، الا انه كان أول من فهم العلاقة بين الغرب والثورة وأول من سمّى المفاهيم الغربية بأسمائها ، كالجمهورية والعدل والمساواة والحرية ... ونوضح هنا اننا لا نعني بهذا أن الترك قد فهم ووعى ابعاد هذه المفاهيم كما وعاها الطهطاوي فيما بعد ولكننا نقول انه ناقل أمين لهذه المفاهيم .

يقول ابو لغد في هذا السياق :

"إن خطر عمل الترك يكمن في نقطتين رئيسيتين : فهو بالدرجة الاولى أول عرض للأحداث الغربية المعاصرة باللغة العربية وأول ردة فعل حقيقية على الثورة الفرنسية في العالم العربي . ولقد شكل - بالدرجة الثانية - المرجع الأساسي الذي بنى عليه المؤرخون اللاحقون تقاريرهم "[٢] .

ولقد فاق وعي الترك للغرب ، كما أسلفنا ، وعي الجبرتي ؛ اذ انه تنبه الى قيم غربية أساسية لم يتوقف عندها الجبرتي ولم يَعِها . فالجبرتي كان يتوقف عند اشكال الاشياء التي يراها ؛ لقد كانت صورة الغرب كما رآها الجبرتي خالية من المفاهيم ، فكان الغرب بالنسبة إليه مجموعة تحركات ومقررات وعلوم مجتزأة عن خلفيّتها ، فجاء تقريره وصفياً مجرداً عن الفكرة

(١) الترك الحملة الفرنسية ، ص ٤٥ .

(٢) Abu Lughod, Arab rediscovery of Europe, P 25.

او الدافع أو المفهوم أو الهدف ، بينما قفز الترك الى الطرف الآخر من اللوحة فذهب الى المفاهيم والى الخلفية وأغفل التفاصيل ؛ لم يتوقف الترك عند ظاهر الأمور بل ذهب الى باطنها وان لم يستطع التعمق فيها . لقد وعى أن فكراً ما وذهنية ما يكمنان وراء مظاهر هذه الحضارة .

لذلك قلنا إن نظرة الترك جاءت متممة لنظرة الجبرتي وان كانت أنضج . وسنرى بعد ذلك كيف اكتملت هذه الصورة مع الطهطاوي بدءاً من مفاهيم الثورة ومبادىء الفكر السياسي وانتهاء بأنواع المآكل والمشارب وتفاصيل الحياة اليومية .

الفصل الأول

الحياة السياسية

أفاق الطهطاوي في باريس على مفهوم جديد للسياسة لم يكن يعرفه في بلاده . ورأى أن أبرز ما تتميّز به السياسة الفرنسية هو انتظامها بدستور ضابط لحركتها ، يحدد حقوق الحاكم والرعية وواجباتهم تجاه بعضهم البعض وتجاه الوطن ، ويضمن سلامة اداء هذه الحقوق وهذه الواجبات ، أي الالتزام بالدستور .

وأفاق الطهطاوي أيضاً على أن القوانين الفرنسية التي يقوم عليها هذا الدستور هي قوانين بشرية لا شرائع دينية مستقاة من نواميس الهية . ولقد وجد الطهطاوي ، كما سيتبيّن فيما بعد ، ان هذه القوانين لا تعارض الشريعة بل توافقها في معظم الأحيان ، وأن الناس باتباعهم هذه القوانين قد عمرت بلادهم وسادها العدل الذي هو أساس العمران .

ولقد حصر الطهطاوي السياسة الفرنسية بالقوانين ، فتكلم من جهة على مصدر هذه القوانين ، وتكلم من جهة أخرى ، على ما تنص عليه هذه القوانين ، أي الأحكام السياسية ؛ وإذا أردنا تلخيص هذه الأحكام بنهج سياسي متكامل ، قلنا إن الطهطاوي قد شاهد في باريس بذور الحكم الديمقراطي ، من شعب يحكم نفسه عبر ممثلين له ، إلى سلطة الحاكم المقيدة بالقوانين وبالشورى ، إلى تمتع كافة المواطنين بالحرية والمساواة .

١- مصادر القوانين الفرنسية :

توقف الطهطاوي ، أثناء حديثه على القوانين السياسية الفرنسية ، عند مصادر هذه القوانين ، وحاول أن يقارن، على عادته ، بين مصادر هذه القوانين ومصادر القوانين في البلاد الاسلامية ، فوجد أن القوانين الغربية هي قوانين بشرية ، على خلاف القوانين الاسلامية المستقاة من الشريعة الالهية.

هذه القوانين الغربية تُسمى القوانين الطبيعية . ويقول الطهطاوي محاولاً تعريفها :

"وهي عبارة عن قواعد عقلية ، تحسيناً وتقبيحاً ، يؤسسون عليها أحكامهم المدنية"(١) .

وفي موضع آخر يقول :

"ان احكامهم القانونية ليست مستنبطة من الكتب السماوية ، انما هي مأخوذة من قوانين أخر غالبها سياسية ، وهي مختلفة بالكلية عن الشرائع ، وليست قارة الفروع ، ويقال لها : الحقوق الفرنساوية ، أي حقوق الفرنساوية بعضهم على بعض ، وذلك لأن الحقوق عند الافرنج مختلفة "(٢) .

ولقد لاحظ الطهطاوي أن الفرنسيين قد استغنوا بالعقل وبالقوانين الطبيعية عن الشرائع الدينية ، فهم يرون أن الأديان إنما جاءت لتحض الناس على فعل الخير واجتناب الشر ، فإذا استطاع الانسان أن يميّز بين الخير والشر بالعقل على مبدأ التحسين والتقبيح العقليين ، بلغ النتيجة ذاتها ؛ فاتباع الشرائع الدينية اذاً ليس شرطاً للعدل ، وليس بالضرورة مبدأ لتعمير الممالك أو الدول ، فلقد رأى الطهطاوي أن بلاد الفرنسيين عامرة مزدهرة ، لا يُظلم فيها أحد ، مع انها تتبع القوانين الطبيعية وتنكر الأحكام الالهية .

يقول :

"ان الفرنساوية من الفرق التي تعتبر التحسين والتقبيح

---

(١) رفاعة الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تحقيق محمد عمارة ، المرشد الامين للبنات والبنين ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٣ ، ص ٤٦٩ .

(٢) الطهطاوي ، الأعمال الكاملة ، تخليص الابريز في تلخيص باريز ، ص ١٠٦ .

العقليين [...] ينكرون خوارق العادات ، ويعتقدون انه لا يمكن تخلف الامور الطبيعية أصلاً ، وأن الأديان إنما جاءت لتدل الانسان على فعل الخير واجتناب ضده ، وأن عمارة البلاد وتطرق الناس وتقدمهم في الآداب والظرافة تسد مسد الاديان ، وأن الممالك العامرة تصنع فيها الامور السياسية كالأمور الشرعية "[١] . يقول أيضاً في وصف القانون الفرنسي :

"والقانون الذي يمشي عليه الفرنساوية الآن ويتخذونه أساساً لسياستهم هو القانون الذي ألفه لهم ملكهم المسمى لويز الثامن عشر ولا زال متبعاً عندهم ومرضياً لهم ، وفيه امور لا ينكر ذووا[٢] العقول انها في باب العدل [...] فلنذكره لك ، وإن كان غالب ما فيه ليس في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لتعرف كيف قد حكمت عقولهم بان العدل والانصاف من اسباب تعمير الممالك وراحة العباد ، وكيف انقادت الحكام والرعايا لذلك حتى عمرت بلادهم ، وكثرت معارفهم ، وتراكم غناهم ، وارتاحت قلوبهم ، فلا تسمع فيهم من يشكو ظلماً أبداً ، والعدل أساس العمران "[٣] .

ولقد أدرك الطهطاوي الفرق بين التحسين والتقبيح العقليين وبين التحسين والتقبيح الشرعيين ، وما ينجم عنهما من الاختلاف في سير الامور في الدول والممالك ، كمسألة تسلم المرأة للحكم الرسمي في البلاد مثلاً ، فإن ذلك مباح في البلاد ذات القوانين الطبيعية لانها تبيح اختلاط المرأة بالرجل ، ومحرم في البلاد التي تقتضي بالشريعة الاسلامية لأن ذلك محرم في الشرع .

يقول :

"وأما السلطنة الرسمية [للمرأة] على الرعية فهي لا تكون إلا في

(١) الطهطاوي ، الأعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ٧٩ .

(٢) ذوو .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٩٥ .

البلاد التي قوانينها محض سياسة وضيعة[١] بشرية ، لأن قوانين مثل هذه الممالك تنتج اختلاط الرجال بالنساء ، بناء على قانون الحرية المؤسس عليه تمدن تلك البلاد ، والا فتمدن الممالك الاسلامية مؤسس على التحليل والتحريم الشرعيين بدون مدخل للعقل تحسيناً وتقبيحاً في ذلك ، حيث لا حسن ولا قبيح الا بالشرع "[٢] .

إلا ان الطهطاوي ، وعلى الرغم مما وعاه من الاختلاف الناجم عن اختلاف مصادر القوانين وطبيعتها في حكم الدول يحاول ان يبرهن أن هذه القوانين الطبيعية لا تناقض الشريعة ، لا بل انها مستنبطة منها ، وان التمدن في سائر البلاد أساسه الاسلام والرسائل الدينية .

يقول :

"ولا شك ان رسالة الرسل بالشرائع هي أصل التمدن الحقيقي الذي يُعتد به ويُتلفت اليه ، وان الذي جاء به الاسلام من الاصول والاحكام هو الذي مدن بلاد الدنيا على الاطلاق ، وانبعثت انوار الهدى من سائر الآفاق [...] ومن زاول علم أصول الفقه ، وفقه ما اشتمل عليه من الضوابط والقواعد ، جزم بأن جميع الاستنباطات العقلية التي وصلت عقول اهالي باقي الامم المتمدنة اليها ، وجعلوها اساساً لوضع قوانين تمدنهم واحكامهم ، قل ان تخرج عن تلك الاصول التي بنيت عليها الفروع الفقهيه التي عليها مدار المعاملات ، فما يسمى عندنا بعلم أصول الفقه يُسمى ما يشبهه عندهم بالحقوق الطبيعية او النواميس الفطرية ، وهي عبارة عن قواعد عقلية ، تحسيناً وتقبيحاً ، يؤسسون عليها احكامهم المدنية ، وما نسميه بفروع الفقه يسمى عندهم بالحقوق او الاحكام المدنية ، وما نسميه بالعدل والاحسان يعبرون عنه بالحرية والتسوية ، وما يتمسك به اهل الاسلام من محبة الدين والتولع بحمايته ، مما يفضلون به عن سائر الامم في القوة والمنعة ، يسمونه محبة الوطن"[٣] .

---

(١) وضعيّة .

(٢) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، المرشد الأمين ، ص ٤٦٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٤٦٩ .

٢ - الاحكام السياسية أو ما تنص عليه القوانين الفرنسية :

اطلع الطهطاوي ، في ما يتعلق بالأحكام السياسية ، على جملة أمور هي نواة الحكم الديمقراطي وأبرزها : مشاركة الشعب في الحكم ، وتمتعه بالحرية والمساواة .

أ - مشاركة الشعب في الحكم :

لقد لاحظ الطهطاوي ، بالنسبة الى مشاركة الشعب في الحكم ، عدة مظاهر لهذه المشاركة ، منها المشاركة في الحكم من خلال تمثيل الشعب بمجلس نيابي ، يسميه الطهطاوي ديوان رسل العمالات .

يقول :

"ولما كان لا يمكن لكل إنسان أن يدخل بنفسه في عمل الدولة وكلت الرعية بتمامها عنها في ذلك اربعمائة وثلاثين وكيلاً تبعثها الى باريس في المشورة ، وهؤلاء الوكلاء تختارهم الرعية وتوكلهم بأن يمانعوا عن حقها ، ويصنعوا ما فيه مصلحة لها "(١) .

ويقول في وظيفة هذا المجلس أو الديوان :

"ووظيفة ديوان رسل العمالات غير متوارثة ، ووظيفتهم امتحان القوانين والسياسات والأوامر والتدبير ، والبحث عن إيراد الدولة ومدخولها ومصرفها ، والمنازعة في ذلك ، والممانعة عن الرعية في المكوس والفرد وغيرها ابعاداً للظلم والجور"(٢) .

فوظيفة هذا الديوان إذاً هي الدفاع عن مصلحة المواطنين ودفع

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٠٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٩٤ .

الظلم عنهم ؛ ولما كان هذا المجلس ممثلاً لأبناء الشعب ، كان الشعب مدافعاً عن مصلحته بنفسه ودافعاً للظلم عنه .

يقول :

"وحيثما كانت رسل العمالات قائمة مقام الرعية ومتكلمة على لسانها كانت الرعية كأنها حاكمة نفسها ، وعلى كل حال فهي مانعة الظلم عن نفسها بنفسها ، او هي آمنة منه بالكلية "[1] .

ومن مظاهر مشاركة الشعب في الحكم ، اختياره للحاكم ولنظام الحكم ، وهذا ما حصل بعد ثورة ١٨٣٠[2] . فالشعب الذي يرفض ان يقتضي بقوانين إلهية ، يرفض كذلك أن يُعيّن الحاكم أو الملك بمقتضى حق إلهي . لذلك ، وبعد ثورة ١٨٣٠ ، قرر الشعب أن يلقّب الملك بملك الفرنسيين وليس بملك فرنسا ، لأن ملك فرنسا يحكم باسم الله ، بينما يحكم ملك الفرنسيين ، باسم الشعب الفرنسي .

ولقد وعى الطهطاوي الفرق بين التسميتين بالنسبة الى الفرنسيين ولكنه لم يرَ مانعاً من أن يكون الشعب قد اختار حاكمه بإذن الله ، أي ان الطهطاوي لا يرى تعارضاً بين كلمة الشعب وكلمة الله.

يقول في ذلك :

"والفرق بينهما [اي بين ملك الفرنسيين وملك فرنسا] أن ملك الفرنساوية معناه كبير على نفس الأشخاص بجعلهم له ملكاً ، بخلاف ملك فرنسا فإن معناه أن ارض فرنسا ما دامت باقية فهو سيدها وملكها ولا منازع له من اهل بلاده فيها ، وسبب ذلك ان الملوك السالفين كانوا يلقبون ملك فرنسا ، وكان اذا كتب الواحد منهم يقول ما صورته : أنا فلان ، بفضل الله تعالى ، ملك فرنسا ونسوار ، على كل من يرى هذه

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٠٤ .

(٢) راجع تخليص الابريز ، ص ٢٥ – ٢٨ .

الاوامـر الحاضـرة سلام ، قـد أمـرنا ونأمـر بما سيـأتي [...] وأمـا ملك الفرنساوية فإنه يقول في كتابته انا فلان ملك الفرنساوية مني السلام على من حضر في الحال والاستقبال ، قد امرنا ونأمر . ففرق بين عبارة الاول والثاني ، فإن الاول جعل نفسه ملك مجموع فرنسا ونوار ، بإنعام الله سبحانه وتعالى عليه ، والثاني جعل نفسه ملك الفرنسيس ، ولم يقل بفضل الله ، ولقد تحاشى عن أن يقول ذلك لإرضاء الفرنساوية ، فإنهم يقولون إنه ملك الفرنسيس بارادة ملته وبتمليكهم له ، لا أن هذه الخصوصية خص الله سبحانه وتعالى بها عيلته من غير ان يكون لرعيته مدخلية ، فظهر من هذا ان قوله : بفضل الله ، معناه عندهم باستحقاقه لذلك بولادته ونسبه ، كما ان قوله : ملك فرنسا ، معناه صاحب الارض والسلطنة عليها ، وإلا فلو كان عندنا لاستوت العبارتان ! فإن كون الملك ملكاً باختيار رعيته له لا ينافي كون هذا صدر من الله تعالى على سبيل التفضل والإحسان ولا فرق عندنا مثلاً بين ملك العجم وملك ارض العجم!"[1] .

ومن مظاهر مشاركة الشعب في الحكم ايضاً ، كما يلاحظ الطهطاوي ، سلطة الملك المقيدة بالقوانين ، وبآراء اهل الدواوين اي الشورى ، فلا مجال للملك أن يمارس سلطة مطلقة ، وانما عليه أن يتقيّد بالقوانين وبالقرارات التي يوافق عليها اصحاب الدواوين ، ومن بينها ديوان رسل العمالات ممثل الشعب .

يقول :

"ان ملك فرانسا ليس مطلق التصرف ، وان السياسة الفرنساوية هي قانون مقيد ، بحيث ان الحاكم هو الملك بشرط ان يعمل بما هو مذكور في القوانين التي يرضى بها اهل الدواوين ، وان ديوان البير[2] [Chambre des Pairs] يمانع عن الملك ، وديوان رسل العمالات يحامي عن الرعية "[3] .

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ٢١٤ .

(٢) انظر الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ٩٤ .

(٣) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ٩٥ .

ب – الحريـة :

ومما استوقف الطهطاوي من الحقوق التي يمنحها الدستور للفرنسيين ، موضوع الحرية الذي يشكل مظهراً أساسياً من مظاهر الديمقراطية ، فالفرنسي يتمتع بالحرية الشخصية والسياسية والدينية والصحفية وغيرها شرط ألا يتنافى ذلك مع القوانين .

ولقد وعى الطهطاوي ، انطلاقاً من ذلك ، دور الحرية في تحقيق التمدن ، كما وعى تمسك الفرنسيين بها ، حتى صارت صفة ملازمة لهم تدفعهم أحياناً إلى عزل الملك أو الحكم عليه بالقتل .

ويذكر الطهطاوي بكثير من الدقة والاسهاب وبإعجاب ملحوظ ثورة الفرنسيين على ملكهم لويس السادس عشر سنة ١٧٩٠ وحكمهم عليه بالقتل ، ثم ثورة ١٨٣٠ وعزلهم للملك شارل العاشر ، بدافع من حرصهم على حريتهم [1] .

والجدير بالملاحظة تعقيب الطهطاوي على ما رواه من أحداث متعلقة بهاتين الثورتين قائلاً عن شارل العاشر :

"فعاد عليه ما فعله بنقيض مراده ، وبنظير ما نواه لأضداده ، فلو أنعم في إعطاء الحرية ، لفرقة بهذه الصفة حَريّة ، لما وقع في مثل هذه الحيرة ، ونزل عن كرسيه في هذه المحنة الأخيرة ، سيما وقد عهد الفرنساوية بصفة الحرية وألفوها ، واعتادوا عليها ، وصارت عندهم من الصفات النفسية" [2] .

يتناول الطهطاوي إضافة الى الحرية السياسية موضوع الحرية الصحفية او حرية التعبير ، فهو يرى في هذه فائدة كبرى ، وهي تنوير القراء وإعلامهم بالمستجدات ، كما يرى فيها عاملاً رئيسياً من عوامل التمدن .

---

(١) راجع الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ٢٠١ – ٢٠٦ .

(٢) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ٢٠٧ .

يقول :

"ومما أعان على سعة دائرة التمدن في بلاد الدنيا ترخيص جميع الملوك للعلماء وأصحاب المعارف في تدوين الكتب الشرعية والحكمية والأدبية والسياسية ، ثم توسع في حرية ذلك بنشره طبعاً وتمثيلاً ، وخصوصاً جرائد الوقائع لا سيما في بلاد اوروبا بقانون حرية ابداء الرأي ، بشرط عدم ما يوجب الاختلال في الحكومة بسلوك سبيل الوسط بغير تفريط ولا شطط "(١) .

وفي موضع آخر يقول :

"وهذه "الجرنالات" مأذون فيها لسائر أهل فرانسا ان تقول ما يخطر لها ، وان تستحسن وتستقبح ما تراه حسناً او قبيحاً ، وأن تقول رأيها في تدبير الدولة ، فلها حرية تامة ، ما لم تضر في ذلك ، فانه يحكم عليها ، وتطلب قدام القاضي "(٢) .

ويعلق الطهطاوي على المادة الثامنة (٣) من الدستور الفرنسي ، وهي التي تبيح حرية إبداء الرأي ، بأن لها فائدة كبيرة وتأثيراً بالغاً في تنوير الناس ، واطلاعهم على كل جديد ، وعرض مشاكلهم ليطلع عليها الرأي العام ، ويساهم في حلها ويأخذ العبرة منها .

يقول :

"وأما المادة الثامنة فانها تقوي كل إنسان على أن يظهر رأيه وعلمه وسائر ما يخطر بباله مما لا يضر غيره ، فيعلم الانسان سائر ما في نفس صاحبه ، خصوصاً الورقات اليومية المسماة بالجرنالات ،

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، المرشد الأمين ، ص ٤٧٠ ، ٤٧١ .

(٢) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٧١ .

(٣) انظر الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ٩٦ .

والكازيطات [...] فإن الانسان يعرف منها سائر الاخبار المتجددة ، سواء كانت داخلية او خارجية ، أي داخل المملكة او خارجها [...] على انها ربما تضمنت مسائل علمية جديدة التحقيق او تنبيهات مفيدة أو نصائح نافعة . ومن فوائدها ان الانسان إذا فعل فعلاً عظيماً أو رديئاً ، وكان من الامور المهمة ، كتبه اهل الجرنال ليكن معلوماً للخاص والعام ، لترغيب صاحب العمل الطيب ، وليرتدع صاحب الفعلة الخبيثة ، وكذلك إذا كان الانسان مظلوماً من انسان كتب مظلمته في هذه الورقات فيطلع عليها الخاص والعام فيعرف قصة المظلوم والظالم ، من غير عدول عما وقع فيها ولا تبديل ، وتصل الى محل الحكم ، ويحكم فيها بحسب القوانين المقررة ، فيكون مثل هذا الأمر عبرة لمن يعتبر "(١) .

ويعلّق الطهطاوي على موضوع الحرية الدينية التي يمنحها الدستور الفرنسي للمواطنين وللغرباء بأن ذلك أيضاً هو من دواعي التمدن وتعمير البلاد . كما هو الامر بالنسبة الى الحرية الشخصية .

ويقول بشأن المادتين المتعلقتين بالحرية الدينية في الدستور الفرنسي :

"وأما المادة الرابعة (٢) والخامسة (٣) [...] فانها نافعة لأهل البلاد والغرباء ، فلذلك كثر أهل هذه البلاد وعمرت بكثير من الغرباء "(٤) .

ج – المساواة :

ومن القيم الديمقراطية التي ينص عليها الدستور ، والتي توقف

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٢) انظر الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ٩٦ .

(٣) انظر الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ٩٦ .

(٤) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٠٣ .

عندها الطهطاوي ، المساواة ، فكافة المواطنين متساوون تجاه القانون ، ولا يمتاز مواطن على آخر في أداء واجبه أو تحصيل حقه أو نيل عقوبته.

والمساواة هي أول أمر ينص عليه الدستور ، وهي موضوع المادة الاولى منه ، ولقد كان إعجاب الطهطاوي شديداً بهذه المادة لما لها من تأثير في رفع الظلم عن الضعفاء ، وإعطاء صاحب كل حق حقه ولو كان فقيراً ، وفي قصاص كل ظالم مُعتدٍ ولو كان الملك . يقول الطهطاوي في ذلك :

"قوله في المادة الأولى : "سائر الفرنسيس مستوون قدام الشريعة" معناه سائر من يوجد في بلاد فرانسا من رفيع ووضيع لا يختلفون في إجراء الأحكام المذكورة في القانون ، حتى ان الدعوة الشرعية تقام على الملك ، وينفذ عليه الحكم كغيره ، فانظر الى هذه المادة الأولى فانها لها تسلط عظيم على اقامة العدل واسعاف المظلوم وارضاء خاطر الفقير بأنه العظيم نظراً الى إجراء الأحكام ، ولقد كادت هذه القضية أن تكون من جوامع الكلم عند الفرنساوية ، وهي من الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم إلى درجة عالية ، وتقدمهم في الآداب الحاضرة ، وما يسمونه الحرية ويرغبون فيه هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والانصاف ، وذلك لان معنى الحكم بالحرية هو إقامة التساوي في الاحكام والقوانين بحيث لا يجور الحاكم على إنسان ، بل القوانين هي المحكمة والمعتبرة ، فهذه البلاد حرية بقول الشاعر :

وقد ملأ العدل أقطارها وفيها توالي الصفا والوفا"[1] .

ويلحق بالمساواة التي يتمتع بها كافة المواطنين ، مسألة تكافؤ الفرص ، فالمواطن الفرنسي أياً يكن ، مؤهل لأخذ أي منصب كان ، فلا تقتصر طبقة واحدة أو عائلة واحدة على حرفة أو مهنة معينة على مرّ الأجيال ، بل يحق لكل انسان أن يختار المهنة التي تناسبه بصرف النظر عن حالته الاجتماعية . ولقد وعى الطهطاوي ما لهذا الأمر من تأثير في تقوية الطموح الفردي والمبادرة الفردية ورفع المستوى الثقافي ودفع عجلة التمدن إلى الأمام .

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٠٢ .

يقول معلقاً على المادة الثالثة من الدستور التي تتعلق بهذا الموضوع :

"وأما المادة الثالثة[1] فلا ضرر فيها أبداً ، بل من مزاياها انها تحمل كل انسان على تعهد تعلمه حتى يقرب من منصب اعلى من منصبه ، وبهذا كثرت معارفهم ولم يقف تمدنهم على حالة واحدة مثل أهل الصين والهند ممن يعتبر توارث الصنائع والحرف ويبقى للشخص دائماً حرفة أبيه . وقد ذكر بعض المؤرخين ان مصر في سالف الزمان كانت على هذا المنوال ، فإن شريعة قدماء القبطة كانت تعين لكل إنسان صنعته ، ثم يجعلونها متوارثة عنه لأولاده ، قيل : سبب ذلك ان جميع الصنائع والحرف كانت عندهم شريفة ، فكانت هذه العادة من مقتضيات الاحوال لانها تعين كثيراً على بلوغ درجة الكمال في الصنائع ، لان الابن يحسن عادة ما رأى أباه يفعله عدة مرات بحضرته ولا يكون له طمع في غيره ، فهذه العادة كانت تقطع عرق الطمع ، وتجعل كل إنسان راضياً صنعته ، لا يتمنى أعلى منها ، بل لا يبحث الا عن اختراع أمور جديدة نافعة لحرفته توصل الى كمالها . انتهى . ويرد عليه انه ليس في كل انسان قابلية لتعلم صنعة ابيه ، فقصره عليها ربما جعل الصغير خائباً في هذه الصنعة والحال انه لو اشتغل بغيرها لنجح حاله وبلغ آماله "[2].

نستخلص مما تقدم ان الطهطاوي كان شديد الإعجاب بالنظام السياسي الفرنسي المتمثل بالدستور الفرنسي ، ولم يتوانَ عن التصريح بإعجابه بهذا الدستور ومواده في عدة مواضع .

يقول :

"ولنكشف الغطاء على تدبير الفرنساوية ، ونستوفي غالب

(١) انظر الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ٩٦ .

(٢) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٠٣ .

أحكامـــهم ، ليكون تدبيرهم العجيب عبرة لمن اعتبر"[١] .

كما يقول :

"ولا يخفى عليك حكمة باقي المواد "[٢] أي مواد الدستور .

وفي موضع أخر يقول :

"فإذا تأملت رأيت أغلب ما في هذه الشرطة نفيساً"[٣] .

ولعل إعجاب الطهطاوي بهذا الدستور هو الذي دفعه إلى ترجمته لما رأى فيه من فائدة لوطنه . وفي هذا يقول حسين فوزي النجار :

"ولا شك انه في اهتمامه بترجمة الدستور الفرنسي – أو ما دعاه "بالشرطة" ترجمة لكلمة [La Charte] الفرنسية – قد اراد ان يبرز ما للحكم الدستوري من مزايا ، ومن ضمان للحرية والعدالة وتقدم البلاد . وان لم ينوه بحاجة مصر اليه ، ولكنه يتمنى في مناسبات كثيرة أن يرى بلاد الاسلام بمثل ما رأى عليه بلاد الفرنسيين"[٤] .

أما فيما يختص بالقوانين الطبيعية فنقول : إن الطهطاوي وإن وقف موقفاً محايداً منها ، فإن موقفه ذلك هو اقرب الى الايجاب والتأييد ، فهو لا يدعو ابناء امته إلى ترك الشريعة الالهية وتبني قانون التحسين والتقبيح العقليين ، كما انه لا يردّ القوانين الطبيعية

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ٩٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٠٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٠٢.

(٤) حسين فوزي النجار ، رفاعة الطهطاوي ، رائد فكر وإمام نهضة ، الدار المصرية للتاليف والترجمة ، لات ، ص ٥٣ .

بالكلية، بل هو يشيد بما وصلت اليه عقول الفرنسيين من تمييز بين الخير والشر ، وحكم بالعدل وتعمير للممالك .

ويحاول الطهطاوي في معرض حديثه على القوانين الطبيعية الفرنسية ان يبرهن انها ليست شيئاً مختلفاً عن الشريعة الاسلامية وانها مستقاة منها وان اختلفت التسميات ؛ ولعلّه تبنى هذا الموقف لجعل هذه القوانين مقبولة لدى أبناء وطنه ، ولعله تبصّر فيها فأدرك ما تشتمل عليه من فوائد للنهوض بالأمة ، فحاول ان يقنع نفسه وأمته بأنها لا تتعارض مع الشريعة الاسلامية فيسهل الأخذ عنها .

يقول محمد عمارة في موقف الطهطاوي من هذه القوانين :

"ودعا [الطهطاوي] إلى الاستفادة من ثروة أوروبا في التشريع والتقنين ، وأن لا يصدنا عن هذه الاستفادة وهم الذين يتوهمون تعارض هذه الشروط التشريعية مع أصول شريعتنا الاسلامية ، فعند الطهطاوي أن أوروبا قد أخذت الكثير عن الشرق الاسلامي ، ومما اخذته ما هو داخل في هذا الباب [..] ومن ثم فإن العلاقة وثيقة بين ثروة اوروبا التشريعية وبين الأصول والأحكام التي استقرت في شريعتنا الاسلامية [...] فالطهطاوي يحبذ الاستفادة الى أبعد الحدود من ثروة أوروبا التشريعية [...] وينفي وهم الذين يتوهمون ان الالتزام بالشريعة الاسلامية ، وتراثها التشريعي ، يحول دون استفادتنا من تراث الاخرين في التشريع والتقنين "[1] .

أما الحرية ، فقد وعى الطهطاوي دورها بالنسبة الى الفرنسيين وبالنسبة الى غيرهم من الشعوب لارتباطها الوثيق بحركة التمدن . ولقد شاهد الطهطاوي عن كثب ثورة سنة ١٨٣٠ ولاحظ استماتة الشعب في استرداد حريته والدفاع عنها ؛ ولقد وعى الطهطاوي الى جانب مفهوم الحرية ، فكرة الثورة التي بها تتحقق هذه الحرية عندما ينقطع الحوار المُسالم بين الشعب والحاكم .

---

(١) محمد عمارة ، رفاعة الطهطاوي ، رائد التنوير في العصر الحديث ، دار الوحدة للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤ ، ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

كما وعى المكانة التي توليها القوانين الفرنسية للمساواة ، فهي عماد حياتهم السياسية ، وبها عمرت بلادهم فلا يُظلم فيها أحد ، ولا يُتعدى فيها على أحد ، ولقد أفاق الطهطاوي في المساواة على أمر هام وهو فرصة تحقيق الذات التي تمنحها القوانين لكافة الناس عبر تكافؤ الفرص .

كما توقف الطهطاوي عند فكرة مشاركة الشعب في الحكم عبر مجالس تمثيلية وعند نظام الحكم الملكي الدستوري أو الملكي المقيّد بالقوانين ، فالملك ليس مطلق الصلاحيات ، وعليه التقيُّد بالقوانين وبآراء أصحاب الدواوين وبذلك يُغلق باب الاستبداد والظلم ، حتى إن الشعب يمكنه أن يحاكم الملك ، إذا لم يتقيّد بالدستور .

لقد شاهد الطهطاوي في فرنسا سياسة قائمة على القوانين ، وكان يكفي ان تعجبه القوانين حتى يعجب بالسياسة . ولقد بلغ اعجابه بهذه القوانين والأنظمة أن دعا ، في مواضع عديدة ، الى تبنيها والتقيد بها بهدف النهوض بأمته وإلحاقها بركب الحضارة .

الفصل الثاني

الحياة الاقتصادية

حظيت الحياة الاقتصادية ، كغيرها من مظاهر الحضارة الغربية ، باهتمام الطهطاوي ، ولقد توقف مطولاً عند عوامل ازدهار الاقتصاد الغربي فتناولها بالتفصيل ، وذلك على خلاف مظاهر هذا الاقتصاد او مقوماته من زراعة وصناعة وتجارة وغيرها ، التي لم يأت على ذكرها إلا باختصار .

ولعل تفسير ذلك ان الطهطاوي قد رمى من خلال حديثة على الاقتصاد الغربي ، وعلى غيره من مظاهر الحضارة الغربية ، الى تنوير أمته وتزويدها بما يلزمها من التقنيات والوسائل التي من شأنها ان تنهض بالاقتصاد وتسير بالبلاد في طريق التقدم .

ولقد وعى الطهطاوي دور العمل البارز في تنشيط الحالة الاقتصادية ، واعتبر ان له المكانة الاولى في دفع عجلة الاقتصاد . فذكر في مناهج الألباب أمثلة عديدة على ذلك وخصوصاً ما يختص منها بالزراعة فألحّ على ان قوة العمل أهم من خصوبة الأرض ، وأن تخصيب الأرض يمكن الحصول عليه بالعمل .

يقول :

"لو زرعنا أرضاً خصبة وميّزنا ما يمكن أن يُنسب من إيرادها للعمل وما ينسب للخصوبة منه ، وفرزنا كلا على حدته وجدنا محصول العمل اقوى من محصول الخصوبة"[1] .

كما وعى الطهطاوي دور الدولة في دعم الاقتصاد ، بل وعى أن انتظام الاقتصاد ومن ورائه ازدهار الوطن وراحة المواطنين هو

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية ، ص ٣١٢ .

مسؤولية الدولة بالدرجة الاولى . لذلك سعت الدولة الغربية الى تحقيق كل ما من شأنه أن يُسهم في ازدهار الاقتصاد ، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة : ففي بعض المجالات ، تتدخل الدولة مباشرة لتنظيم بعض حركات الاقتصاد وتسهيلها ودعمها ، وفي مجالات أخرى تسهر الدولة على تأمين الجو الملائم والتقنيات اللازمة لتسهيل أعمال العاملين في هذا الحقل .

ومن مظاهر الاقتصاد الغربي والفرنسي بالتحديد ، لم يذكر الطهطاوي إلا ما كان جديداً بالنسبة إليه ، فلم يتحدث على مظاهر الاقتصاد التقليدية من زراعة وصناعة وتجارة ، وإنما تحدث على مظاهر لم يعرفها في بلاده ، كالصيرفة وشركات التأمين .

I - عوامل ازدهار الاقتصاد :

١ - دور العمل في حركة الاقتصاد :

في دور العمل في حركة الاقتصاد ، أدرك الطهطاوي ، كما أشرنا ، تأثير العمل في النهوض بالاقتصاد ، فلقد رأى ان دول أوروبا مزدهرة بفضل نشاطها في العمل وذلك على عكس دول أفريقيا التي تعاني من الفاقة والجمود الاقتصادي رغم خصوبة أراضيها وغناها بالمواد الأولية بسبب "فتور حركتها" كما يقول الطهطاوي أي بسبب خمولها ، وغياب فضيلة العمل فيها . فالتقدم والازدهار الاقتصادي في الغرب قائمان بالدرجة الاولى على طاقة العمل أو قوة العمل كما يسميها وليس على طاقات المواد الأولية .

يقول :

"ان الامة المتقدمة في ممارسة الأعمال والحركات الكدية ، ذات الكمالات في العملية المستكملة للأدوات الكاملة والالات الفاضلة والحركة الدائمة ، قد ارتفعت الى أعلى درجات السعادة والغنى بحركات اعمالها ، بخلاف غيرها من الأمم ذات الأراضي الخصبة الواسعة ، الفاترة الحركة ، فإن أهاليها لم يخرجوا من دائرة الفاقة والاحتياج ، فإذا قابلت بين أغلب أقاليم أوروبا وأفريقية ظهر لك حقيقة ذلك .

فمن هذا يظهر ان اساس الغنى مبني على كثرة الأشغال والأعمال، فهي مصادر وموارد للأموال ، ومنابع للسعد والاقبال "[١] .

هذه الظاهرة العامة او هذا الاقدام الجماعي على العمل ، ليس إلا نتيجة لإقدام الفرد الواحد ، ولقد توقف الطهطاوي عند حب الفرنسيين للعمل والكسب ، وعند الشأن الذي يولونه للعمل وعند مواظبتهم عليه أيا تكن الظروف .

يقول :

"وسائر الخلق بباريس يحبون الكسب والتجارة ، سواء الغني والفقير ، حتى ان الصغير الذي لا يمكنه التكلم الا بالاشياء الصغيرة اذا اعطيته فلساً يفرح به ويصفق بيده قائلاً ما معناه بالعربية كسبت وقنيت ! [...] وتداول الامطار والرياح لا يمنع الانسان منهم الخروج الى شغله ، يقولون بلسان حالهم : اليد الفارغة تسارع الى الشر ، والقلب الفارغ يسارع الى الاثم !"[٢] .

وسنفصل القول في حب الفرنسيين للعمل في فصل لاحق .

٢ - دور الدولة في تنمية الاقتصاد :

في إطار دور الدولة المباشر في تنمية الاقتصاد ، تحدّث الطهطاوي على عدة أمور ، منها تدابير تتعلق بميزانية الدولة مباشرة، كالتدبير بمعنى التوفير والاقتصاد في المصاريف ، والضرائب التي تفرضها الدولة على المواطنين ، ومنها تدابير تتعلق بفتح السبل أمام العاملين في حقل الاقتصاد ودعمهم بطرق شتى ، كمنحهم حرية العمل ، أو فتح اسواق خارجية لتصريف البضائع واستجلاب المواد الأولية أي الاستعمار .

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، مناهج الألباب ، ص ٣١٢ ، ٣١٣ .

(٢) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٥٢ .

يقول في تدبير الدولة الفرنسية :

"ومن جملة أسباب غناء الفرنساوية انهم يعرفون التوفير وتدبير المصاريف ، حتى انهم دونوه وجعلوه علماً متفرعاً من تدبير امور الملكية ، ولهم فيه حيَل عظيمة على تحصيل الغنى ، فمن ذلك عدم تعلقهم بالأشياء المقتضية للمصاريف ، فإن الوزير مثلاً ليس له أزيد من نحو خمسة عشر خادماً ، وإذا مشى في الطريق لا تعرفه من غيره ، فإنه يقلل اتباعه ما أمكنه داخل داره وخارجه ، وقد سمعت ان قريب ملك الفرنسيس المسمى "الدوك درليان" ، وهو الآن السلطان الذي هو من اعظم الفرنسيس مقاماً واكثرهم غناء له من الاتباع وسائر من في طرفه من العساكر ونحوها كالبستانجية والخدم وغير ذلك نحو اربعمائة نفس لا غير ، والفرنساوية يستكثرون ذلك عليه ، فانظر الفرق بين باريس ومصر حيث ان العسكري بمصر له عدة خدم "[١] .

تحدث الطهطاوي الى جانب تدبير الدولة وحسن توظيفها للأموال، على الضرائب التي يدفعها المواطنون والتي تشكل مورداً إضافياً ثابتاً للدولة يُسهم في إغنائها .

ولقد عدد الطهطاوي محاسن هذا النظام ، واستشهد بالحكمة القديمة القائلة بأن "الخراج عمود الملك" وبان الممالك تقوم عليه . ولقد رأى ان الضرائب تؤخذ من المواطنين بطريقة لا تؤثر سلباً في مداخيلهم، فإنهم لذلك لا يتذمرون من دفعها وانما يفعلون ذلك "عن طيب خاطر" . ولقد تمنى الطهطاوي لو كانت الضرائب مرتبة في بلاده كما في الغرب بشكل يكفي بيت المال ويؤمن المواطنين من الظلم .

يقول :

"انهم [أي الفرنسيين] يدفعون الميري عن طيب خاطر ، لما أنهم يرون أن الخراج عمود الملك اذا دفع كل إنسان منهم ما هو عليه قادر ، فمال الميري هو قوام صورة الممالك ، وإحسان مصرفه في استحقاقه

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٥٣ .

خير مما هنالك "[1] .

وفي موضع آخر يقول :

"ومن الحكم المقررة عند قدماء الحكماء : الخراج عمود الملك . ومدة إقامتي بباريس لم أسمع احداً يشكو من المكوس والفرد والجبايات أبداً، ولا يتأثرون بحيث انها تؤخذ بكيفية لا تضر المعطي وتنفع بيت مالهم ، خصوصاً وأصحاب الاموال في أمان من الظلم والرشوة "[2] .

ولقد بلغ اعجاب الطهطاوي بهذا النظام ، أن تمنى لو كانت الامور مرتبة بنفس الطريقة في بلاده .

يقول :

"ويُمكن أن يُقال ان الفرد ونحوها لو كانت مرتبة في بلاد الاسلام كما هو في تلك البلاد لطابت النفس ، خصوصاً إذا كانت الزكوات والفيء والغنيمة لا تفي بحاجة بيت المال ، أو كانت ممنوعة بالكلية ، وربما لها اصل في الشريعة على بعض أقوال مذهب الامام الأعظم[3] "[4] .

تحدث الطهطاوي ، في ما يتعلق بالتدابير التي تتخذها الدولة لفتح السبل أمام العاملين في الاقتصاد ، على حرية العمل وترخيص الدولة للأعمال ، وعن دعمها ومساعداتها الدائمة للمواطنين .

يقول :

"فالميل إلى التجمل والتزين ومواد الطنطنة والأبهة يتولد منه

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٥٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٠٣ .

(٣) ابو حنيفة .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٠٣ .

غنى جميع الأقاليم التشغيلية لاتساع دوائر الأخذ والإعطاء ، وكمال الحرية في ذلك ، فبهذا تتسع دوائر الزراعة والتجارة والصناعة باتساع الرخصة في الاقاليم بالمعاونات والمساعدات من أرباب الحكومات المختلفة "(١).

وتحدث الطهطاوي ، من جملة هذه التدابير على الاستعمار كمورد توجده الدولة الغربية لمواطنيها ، لتسهيل حركة الصناعة والتجارة ، فتفتح بذلك أمامهم أفقاً جديداً يلبي حاجاتهم وطموحهم الى الثروة . ولم يجد الطهطاوي في حركة الاستعمار هذه خطراً على بلاده، بل نظر اليها كتجارة خارجية تعود بالنفع على البلد المستعمِر بالدرجة الاولى وعلى البلاد المستعمَرة بالدرجة الثانية .

يقول :

"ولما كانت الدولة الانكليزية قد أحست ان منبع ثروة أهاليها لا تنتج الا من التجارة والصناعة ، وان كلاً منهما يحتاج الى الحرية التامة ، والى الاستجلاب والتوزيع للبضائع المختلفة ، واستحصال الاثمان ، وتكثير اموال المملكة بتوزيعها بين الاهالي براحة جميعهم ليكونوا مشتركين في السعادة المالية ، فتحت هذه الدولة بلاداً واسعة في اقطار شاسعة في الهند وبلاد افريقيا وجزائر البحر المحيط الاكبر ، لتقديم صناعتهم وتجاراتهم بالاخذ والاعطاء ، ليعود ذلك كله بالفوائد الجمة على اهالي مملكتهم بالاصالة وعلى غيرها بالتبعية ، وكذلك غيرهم من ممالك اوروبا كالاسبانيين والبرتغال والفرنساوية والفلمنك وغيرهم . ويقال لهذه الحركة التقدمية "أندوستريا قولنية" [Industrie Coloniale] يعني تجارة خارجية "(٢) .

وتحدث الطهطاوي ، في إطار دور الدولة غير المباشر الذي من

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، مناهج الألباب ، ص ٣٤٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٤٦ .

شأنه ان يسهل أمور المبادلات الاقتصادية ، على طرق المواصلات ووسائل النقل ، والبريد والدعاية .

١ - طرق المواصلات ووسائل النقل :

لاحظ الطهطاوي تأثير حالة طرق المواصلات المباشر على نشاط الحركة الاقتصادية ، وأدرك العلاقة الوثيقة بين اتساع شبكة المواصلات البرية والبحرية وتعدد وسائل النقل من جهة وبين الازدهار الاقتصادي من جهة أخرى .

يقول :

"ومن الأمور التي تعين على النجامة والكسب تعمير طرق البر والبحر ، فمن ذلك صناعة الخلجان والقوارب التي تسير بالدخان ، ونصب القناطر ، ونصب دواوين تسفير العربات الكبيرة [...] فانظر الى مدينة باريس فإن حولها اربعة خلجان تأتي منها المتاجر ، وفي نهر السين تسير قوارب على صورة العربات ، وقوارب تمشي بالنار سريعة السير ، وبمدينة باريس جملة انواع من العربات مختلفة الشكل والاسم والسير والاستعمال "[1] . وفي حديث على اتساع الطرق يقول :

"وقد أسلفت ان مدينة اسكندرية تشبه في حالها مرسيليا ، وأذكر هنا ان الفرق بينهما اتساع السكك والطرق اتساعاً مفرطاً لمرور جملة عربيات معاً في طريق واحد "[2] .

٢ - البريـــد :

وعى الطهطاوي ، الى جانب طرق المواصلات ووسائل النقل ، دور البريد الأساسي كوسيلة للاتصال وبالتالي كعامل رئيسي من عوامـــل

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٥٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٥ .

ازدهار الاقتصاد ، فأشاد بتنظيم البريد في باريس ، وبسرعته ، وتوقف بشكل خاص عند الثقة التي يمنحها الناس لهذه المؤسسة ، لناحية الامانة ، فهم مطمئنون إلى أن أحداً لن يطلع على أخبارهم او يفتح رسائلهم .

يقول :

"ومن الأمور التي تعين على النجامة والكسب [...] التليفراف وهي الاشارة، ونصب البريد بالساعي ، والبريد بالخيل وغير ذلك "(١) .

وفي البريد أيضاً يقول :

"وأما البريد المسمى عند الفرنسيين "البسطة" فانه من اهم المصالح النافعة في التجارات وغيرها ، يسهل فيه اخبار الغير بواسطة المكاتبات التي تذهب عاجلاً ، ويأتي ردها في اسرع ما يكون ، وتدبيرها بكيفيتها التي هي عليها من اعظم ما يمكن ، فإن المكاتب التي تبعث في هذا البلد او العمالة تصل إلى صاحبها من غير شك ، لان سائر (نمرة) البيوت مكتوب عليها بالرقم عددها المسمى (النمرة) ، فيها يمتاز البيت عما عداه ، والمكتوب الذي تبعثه لانسان تضعه في محل المكاتيب الموضوع في كل حارة ، فيأتي الساعي ويأخذه ، فيصل المكتوب الى الحارة الاخرى ، ويأتي رده في يومه ، ثم ان الفرنساوية يحترمون امور المراسلات غاية الامكان ، فلا يمكن لانسان ان يفتح مكتوباً معنوناً باسم آخر ولو كان متهماً بشيء [...] وفي باريس محل لارسال المعاملات والحوائج مع الساعي أيضاً من غير خوف أبداً "(٢) .

٣ - الدعايـــة :

ومن الأمور التي لا يستهان بها في تنشيط حركة الاقتصاد ،

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٥٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٥١ .

والتي وعاها الطهطاوي في باريس ، الدعاية . ولقد ادرك دورها في ترويج التجارة عن طريق إعلام الناس بوجود السلع وترغيبهم بها ، إما لمنفعتها أو لجودة صناعتها .

ولقد تحدث على نوعين من الدعاية . الدعاية بواسطة الصحف والدعاية بواسطة المناشير .

يقول :

"ومن الامور النافعة في التجارات "الجرنالات" ، فيتكبون فيها كثيراً من البضاعة النافعة او الجيدة الصنعة ويمدحونها ليروجوا السلع وليعلموا الناس بها ، وصاحب البضاعة يدفع لهم شيئاً في نظير ذلك [...] وقد يطبع التاجر الذي يريد ترويج سلعته عدة اوراق صغيرة ويرسلها مع خدم في سائر البيوت ولسائر المارين بالطرق ويفرقها عليهم مجاناً ، ففي هذه الاوراق يذكر اسمه واسم دكانه وما عنده من المبيع ويعين القيمة لسلعته . وبالجملة ، ففي مدينة باريس يباع سائر ما يوجد في الدنيا ، سواء كان خطيراً أو حقيرا"[(١)] .

II – مظاهر الاقتصاد :

قلنا إن الطهطاوي لم يفصل الكلام ، في ما يتعلق بمظاهر الاقتصاد ، وإنه اكتفى بما رآه جديداً بالكلية بالنسبة اليه وإلى بلاده ، فهو لم يتحدث على مقومات الاقتصاد بالتفصيل إلا حينما حاول ، في مناهج الألباب ، أن يشرح لأهل وطنه كيفية إنقاذ الاقتصاد ومن ورائه الوطن ، فحاول ان يطبّق على الاقتصاد المصري ما رآه معمولاً به في الغرب .

ومن الجديد الذي تعرّف إليه الطهطاوي في حقل الاقتصاد ، تجارة الصيرفة ولقد رأى انها من اعظم التجارات في باريس ، وأن الدولة تدير هذه التجارة مباشرة ، فيودعها الناس أموالهم وتعطيم مقابل ذلك

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٥١ ، ١٥٢ .

ربحاً سنوياً اي فائدة . ولم يبدُ الطهطاوي متعجباً او مستنكراً لهذه التجارة بل اكتفى بالقول انها لا تُعد "عندهم"، أي عند الفرنسيين ، ربا.

يقول :

"ثم ان اعظم التجارات وأشهرها في باريس معاملات الصيارفة [...] ووظيفة الدولة بالنسبة للتجارة ان تودع الناس ما يريدون وضعه، ويأخذون كل سنة ربحه المعيّن في قانونهم ، فلا يُعد عندهم هذا الربح ربا الا إذا زاد عما في القانون "[١] .

ويضيف قائلاً :

"ولكن المال المودع عند صيارفة المملكة آأمن من المودع عند صيارفة المدينة ، وذلك ان صيارفة المدينة قد يفلسون ، وأما صيارفة الدولة فان ما يأخذونه يكون ديناً على الدولة والدولة دائماً موجودة "[٢].

مرّة أخرى يشدد الطهطاوي على دور الدولة ، وحضورها ودعمها الدائمين للمواطنين ، فهي كما عرفها في باريس ، عماد الوطن ، وسند المواطنين ، وصرح صامد . خصوصاً في قوله :

"والدولة دائماً موجودة" .

ذكر الطهطاوي بالاضافة الى تجارة المصارف شركات التأمين أو ما أسماه بـ "الشركاء في الضمانة" .

"ومن أمور المعاملات المهمة عند أهل باريس جمعية تسمى "الشركاء في الضمانة" فانها تضمن لمن يدفع لها كل سنة قدراً هيناً مخصوصاً سائر ما يتلف في بيته بحادثة قهرية ، كما اذا انحرق بيته

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٤٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٤٩ .

او حانوته أو نحو ذلك ، فانها ترجعه له كما كان ، وتدفع له قيمته "[١].

جاءت نظرة الطهطاوي الى الاقتصاد الفرنسي ومن ورائه الاقتصاد الغربي إيجابية . فلقد اعجبه تنظيم الاقتصاد ، كما اعجبه اهتمام الدولة به ، وتنميتها له بشكل دائم .

كما ادرك الطهطاوي ان العمل هو الفضيلة الاولى التي بها ينمو الاقتصاد ، وانه القوة التي بها يتحول كل مجدب قاحل الى مثمر مزدهر. وادرك أيضاً أن حب العمل ليس فضيلة عامة فقط يتميز بها المجموع دون الفرد ، بل العمل هو شعار الفرد في الغرب قبل أن يكون شعار المجموعة .

ولقد توقف الطهطاوي مطولاً ، عند دور الدولة في تنمية الاقتصاد حتى غدت كلمة اقتصاد مرادفة او ملازمة لكلمة دولة . فهي لا تعدم وسيلة لدعم الاقتصاد بما في ذلك الاستعمار .

ومع أن الطهطاوي لم يُبدِ أي تحفظ او حذر حيال ظاهرة الاستعمار الغربي في تخليص الابريز فإنه عاد فوصف هذه الظاهرة "بالايغال" وبـ"التشهيات الفاسدة" في مناهج الألباب .

يقول الطهطاوي نقلاً عن أحد المؤرخين الذين مرّوا بمصر :

"ولما حل بها جيش الفرنساوية امعن النظر فيها ، وعرف قيمة الطرق المعاشية ، وان مصر لو حكمت بحكومة مماثلة لدول اوروبا المنتظمة لأمكن تكثير اهلها [الى ان يقول على لسان هذا المؤرخ] : لا شك ان ما ذكرته من التحسينات في شأن المملكة المصرية يقع معظمه موقع التحقيق لو دامت هذه المملكة في قبضة الفرنساوية "[٢] .

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٢) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، مناهج الألباب ، ص ٤٧٢ – ٤٧٧ .

ثم يضيف الطهطاوي معلقاً على ذلك :

"فكلامه مبني على شبهة واهية ، وهي ان مصر يسوغ ان تحصلها فرانسا وأي مملكة تكون لها مضاهية ، فاعتقاد ذلك من الإيغال المدهى ، أو من باب التشهيات الفاسدة "[١] .

ويمكننا تفسير هذا التحول في تفكير الطهطاوي بطريقتين :

الاولى ، ان يكون الطهطاوي قد رحّب بالاستعمار الغربي كفكرة او كظاهرة تظل بعيدة عن بلاده ، ولكنها تصبح نوعاً من أنواع الطمع والتعدّي حين تتجه بفكرها نحو مصر .

والثانية ، هي الاختلاف في درجة الوعي عند الطهطاوي بين تخليص الابريز ومناهج الألباب . فالاستعمار الذي بدا له امراً ايجابياً تحت تأثير سحر الحضارة الغربية في تخليص الابريز ، بدا له طمعاً وتعدياً مع مرور الزمن وبعد اختمار التجربة في مناهج الألباب . ونحن الى التفسير الثاني أميل . وسنوضح ذلك في ما بعد .

ولقد بلغ إعجاب الطهطاوي بسياسة الاقتصاد الغربي ، أن تمنى في مواضع عدة ، لو كانت الحال عليه في بلاده ، سواء في تدبير الدولة واقتصادها في المصاريف ، ام في جباية الضرائب بطرق نزيهة لا ترهق المواطن ، او في امانة البريد ، او في اتساع الطرق ، او غير ذلك .

ومن الواضح الجلي ان الطهطاوي يفصّل القول في كل ما من شأنه ان ينهض بالاقتصاد المصري ويوقظه من غفوته الطويلة . فيشدد على النظم وعلى القيم المعنوية اكثر من تشديده على التقنيات والوسائل المادية ، فهو يتحدث على فضائل العمل وعلى تدبير الدولة وعلى الحرية التي تمنحها للمواطنين في ممارسة أعمالهم ، وعلى الامانة في مؤسساتها . فنراه يتحدث على ذهنية الغرب الاقتصادية قبل ان يتحدث على تقنياته الاقتصادية .

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، مناهج الألباب ، ص ٤٧٧ .

ولقد حاول الطهطاوي ، وعلى عادته في كل ما نقله عن الغرب ، ان يُعلم أبناء أمته أن القيم والعادات والقوانين الغربية التي أعجب بها والتي دعا إلى تبنيها أو الى أخذها بعين الاعتبار على الأقل ، ليست قيماً غريبة عن الإسلام ، فكتب الفقه مليئة بالأحكام التي تنظم أمور الاقتصاد ، ولا شك أن الغرب قد اقتبس منها .

يقول :

"ومن أمعن النظر في كتب الفقه الاسلامية ظهر له انها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية ، حيث بوبوا للمعاملات الشرعية أبواباً مستوعبة للأحكام التجارية كالشركة ، والمضاربة ، والقرض والمخابرة والعارية ، والصلح ، وغير ذلك . ولا شك أن قوانين المعاملات الاوروباوية استنبطت منها كالسُفتجة التي عليها مبنى معاملات اوربا "[1].

ومع كل ما ابداه الطهطاوي من إعجاب بالنظم الاقتصادية الغربية فانه لم يدعُ الى تبنيها على صورتها ، إنما أراد أن يوفّق بين حداثة النظم الغربية وتلبيتها لحاجة العصر وبين شرعية النظم الاسلامية وأصالتها ، أو أنه أراد عصرنة النظم والاحكام الشرعية لتتماشى مع حاجات العصر .

يقول :

"ان المعاملات الفقهية لو انتظمت وجرى عليها العمل لما أخلت بالحقوق بتوفيقها على الوقت والحال مما هو سهل العمل على من وفقه الله لذلك من ولاة الامور المستيقظين "[2].

فالغرب بالنسبة إليه ، ليس نموذجاً يقلده في المطلق ، بل مثال يقتبس منه ويعدل بما يتناسب مع حضارته .

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، مناهج الألباب ، ص ٣٦٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٦٩ ، ٣٧٠ .

الفصل الثالث

الحياة العلمية

خصّ الطهطاوي الحياة العلمية في الغرب باهتمامه الاكبر وأولاها شأناً لم يوله أياً من مظاهر الحضارة الغربية الأخرى .

فلقد رأى التقدم العلمي الذي بلغه الغرب ، وأدرك قيمة هذا التقدم وأثره في النهوض بالوطن وبالحضارة ، واعتبر ان سر نجاح الغرب كامن في تقدمه في حقل العلوم . ولقد أيقن ان العامل الوحيد أو الأساسي الذي يمكنه بعث وطنه من رقاده هو نهضة العلوم بالدرجة الاولى ؛ لذلك انكب الطهطاوي على العلوم الغربية على اختلافها يدرسها ويصفها ويترجمها علّها تخرج بوطنه من ظلمة الغياهب الى النور .

وتجدر الاشارة الى ان الطهطاوي قد قدم الى باريس عضواً في بعثة علمية هدفها الأول تلقي العلوم من منابعها ودراستها على أصحابها، لذلك كان من الطبيعي أن يولي الحقل العلمي جل اهتمامه .

يقول :

"أرسل [محمد علي] الى فرانسا عدة ارساليات لتعليم العلوم والصنائع واستخراج الفنون من معادنها لتفي بمراده ، فتكفل باستخراج المنافع من معادنها ، وباستنباط عيون المعارف من مواطنها "(١) .

ولقد أعجب الطهطاوي بهذا التقدم العلمي الذي شاهده في الغرب ، وباشتماله على فروع ومجالات عديدة .

يقول :

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، مناهج الألباب ، ص ٤٣٩ .

"البلاد الافرنجية قد بلغت أقصى مراتب البراعة في العلوم الرياضية ، والطبيعية ، وما وراء الطبيعية ، اصولها وفرعها ، ولبعضهم نوع مشاركة في بعض العلوم العربية ، وتوصلوا الى دقائقها واسرارها "[١].

وفي موضع آخر :

"ولا ينكر منصف ان بلاد الافرنج الآن في غاية البراعة في العلوم الحكمية وأعلاها في التبحر . من ذلك بلاد الانكليز والفرنسيس والنمسا، فإن حكماءها فاقوا الحكماء المتقدمين كأرسطاطايس ، وافلاطون ، وبقراط ، وامثالهم ، واتقنوا الرياضيات والطبيعيات والالهيات وما وراء الطبيعيات أشد اتقان "[٢].

ولقد اعترف الطهطاوي للغرب بالسبق على غيره من الأمم خصوصاً في ما يتعلق بالعلوم التجريبية .

يقول :

"الذي يظهر لمن تأمل في أحوال العلوم والفنون الأدبية والصناعة، في هذا العصر ، بمدينة باريس ، ان المعارف البشرية قد انتشرت وبلغت اوجها بهذه المدينة ، وانه لا يوجد من حكماء الافرنج من يضاهي حكماء باريس ، بل ولا في الحكماء المتقدمين ، كما هو الظاهر أيضاً . غير ان صاحب النقد السديد قد يقول : إن سائر الفنون العلمية التي يظهر أثرها بالتجاريب معرفة هؤلاء الحكماء بها ثابتة ، واتقانها عندهم لانزاع فيه ، كما يشهد لذلك قول بعض اجلّة الحكماء : الامور بتمامها ، والاعمال بخواتيمها ، والصنائع باستدامتها . وأما اغلب العلوم النظرية فانها معروفة لهم غاية المعرفة . ولكن لهم بعض اعتقادات فلسفية خارجة عن قانون العقل بالنسبة لغيرهم من الأمم ،

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٢ .

غير انهم يموهونها ويقوونها حتى يظهر للإنسان صدقها وصحتها "[١] .

كما توقّف الطهطاوي عند تطور هذه العلوم وتجددها واتساعها يوماً بعد يوم .

يقول :

"والعلوم في مدينة باريس تتقدم كل يوم ، فهي دائماً في الزيادة ، فانه لا تمضي سنة الا ويكشفون شيئاً جديداً ، فانهم قد يكشفون في السنة عدة فنون جديدة أو صناعات جديدة أو وسائط أو تكميلات "[٢].

وفي حديثه على الحياة العلمية تناول الطهطاوي ثلاثة جوانب أساسية : الأول هو العلوم ، جوهر الحياة العلمية ومادتها الاولى ، وفيه تكلم على العلوم والفنون والآداب واللغة ، والثاني هو العلماء ، وهم القوة المحركة والموجّهة للعلوم ، وفيه تكلم على تخصصهم في العلم ودأبهم في العمل ، والثالث هو الفرد الفرنسي ، وهو الطرف المستوعب للعلوم ولجهود العلماء ، وفيه تكلم على ارتفاع المستوى الثقافي عند الفرد الفرنسي عموماً وميله الطبيعي الى تحصيل المعارف .

- ١ - العلوم :

- أ - العلوم :

خصص الطهطاوي الباب الثاني من مقدمة تخليص الابريز لتعداد طائفة من العلوم الغربية التي اعتبرها ضرورية لكل دولة .

يقول :

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٥٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٦١ ، ١٦٢ .

"ولنذكر لك هنا الصنائع المطلوبة ، لتعرف أهميتها ولزومها في أي دولة من الدول . وهذه الفنون إما واهية في مصر أو مفقودة بالكلية "[1].

ولقد عبّر الطهطاوي بكلمة علوم عن كثير من الفروع ، بدءاً بالفنون البحرية واستطراداً الى الفنون الحربية والاصول الدبلوماسية والفيزياء والكيمياء والطب والزراعة والنقش والترجمة[2] .

ويتبيّن مما تقدّم ان الطهطاوي قد اعتبر أن كل حقل أو كل اختصاص يقوم على قواعد محددة مكتوبة علم ، ولا يخلو ترتيبه للعلوم من اضطراب ومن اغفال لبعض العلوم الاخرى الاساسية . والذي يعنينا نحن في هذا الامر هو تعرّف الطهطاوي الى هذه العلوم او الى هذه الاختصاصات ووصفه لما تعالجه وتختص به . ولعل الاهم من ذلك هو تركيزه على هذه العلوم كضرورة اساسية لقيام الدول . وغالباً ما لم يُطل الطهطاوي الشرح في باب العلوم فاكتفى بتعدادها ووصفها ، اللهم الا فيما يتعلق بالطب الذي توسع في شروحاته وبعلم النبات والجغرافيا.

لقد وصف الطهطاوي باريس بانها أعظم بلاد الغرب في مجال الطب ، ورأى ان الناس يقصدونها إما لتعلّم الطب أو للتداوي على يد أطبائها ، كما وجد فيها عدداً كبيراً من الأطباء مما يدل على شيوع هذا العلم عندهم .

يقول :

"اعلم ان مدينة باريس هي اعظم مدن الافرنج التي يرحل اليها الغرباء لتعلم العلوم ، خصوصاً العلوم الطبية ، وقد ينتقل اليها

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ٢١ .

(٢) راجع الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، الباب الثاني من المقدمة .

المرضى من بلاد بعيدة للبحث عن تداويهم فيها [...] والحكماء في باريس كثيرون جداً ، حتى يوجد في كل خط عدة حكماء ، بل الطرق مملوءة من الحكماء ، حتى ان الانسان إذا أصيب في الطريق بداء فإنه لا بد أن يجد الحكيم حالاً ، لكثرة الحكماء بهذه البلدة "[١].

ولقد وعى الطهطاوي مسألة أساسية تتعلق بالعلوم وهي الاختصاص . فهو يعود في مواضع عدّة الى هذا الامر ، ويشدد على قيمة الاختصاص ودوره في تقدم العلوم مشيراً الى تعمق العالم وتبحره في علم دون غيره وفي فرع دون غيره ضمن العلم الواحد . كما أدرك شأن الاختصاص في تعزيز كفاءة العلماء ، وفعالية علمهم .

يقول :

"ثم ان الأطباء في باريس فرقتان ، احداهما : الأطباء عامة لمطلق الامراض على تنويعها ، والاخرى : لداآت خاصة ، وذلك ان علم الطب متسع جداً فقل ان يشتغل إنسان بسائر فروعه ويحققها ، فاحتياج أطباء الفرنساوية الى أن الطبيب بعد أن يقرأ فروع العلوم الطبية ينبغي له أن يختار منها فناً ليصرف فيه همته ويتقوى فيه ويتبحر . حتى يشتهر ويمتاز عن غيره من الأطباء بتحقيق ذلك الفن ، حتى يجلب اليه من به داء يدخله شيء من ذلك الفن ، فلذلك يوجد في باريس أطباء مثلاً لخصوص مرض الرئة ، وأطباء مرض العين تسمى "المكحلاتية" ، وأطباء لأمراض الأذنين ، وأطباء لداء الانف وتجبيره "[٢].

ومن الفروع الطبية التي عرفها الطهطاوي في باريس فرع التجميل عن طريق الجراحة أو تركيب الاعضاء الاصطناعية .

يقول :

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٢٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٣٠ .

"حتى ان من اطباء الأنف من يمكنه بالحيلة أن يرجع الأنف المجدوع صحيحاً "[١].

وفي موضع آخر :

"وفي باريس بيوت حكماء معدة لمن ابتلى بخلل شيء من عظام البدن كالاحديداب ، فإنه يدخل بيتاً من هذه البيوت للتطبيب فيقومون بدنه بشيء من علم الحيل ، كما اذا كان مقطوع أحد الاطراف فإنهم يجبرون ذلك بأن يضعوا له من المعدن او الخشب شيئاً في محلّه "[٢] .

ولقد ذكر الطهطاوي بعض المستشفيات المتخصصة في جراحة التجميل او الولادة او غيرها . كما ذكر المستفشيات المجانية او المستوصفات التي يعالج فيها المرضى بدون مقابل :

يقول :

"ومن المواضع المعدة للمرضى والتي يوجد فيها الاطباء المارستانات العامة فتدخلها المرضى للعلاج ولإقامة مدة المرض بلا عوض"[٣] .

ولقد كان الطهطاوي شديد الاعجاب بما وصل اليه الطب في باريس حتى وصفها بأعظم المدن في هذا الميدان ، كما كان شديد الاحترام عميق الايمان بكل ما أتى به الطب الغربي من وصفات وارشادات وقواعد ، مما دفع به الى ترجمة نُبذ منها ليعود نفعها على أهل وطنه .

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٣٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٩ .

يقول :

"ولنذكر لك نبذة من فن قانون الصحة وتدبير البدن حتى تتم فائدة هذه الرحلة ، وهذه نبذة ترجمتها في باريس لقصد استعمال جميع الناس بمصر لها ، لصغر حجمها ، فهي وان كانت تخرجنا عما نحن بصدده الا ان منفعتها عظيمة وثمرتها جسيمة "[١] .

وفي قوله "حتى تتم فائدة هذه الرحلة" ، تصريح بما اجتناه من فوائد في رحلته ، وتعبير عن تقديره وتعظيمه للطب الغربي .

كان حديث الطهطاوي ، في مجال الهندسة الزراعية ، أشد اختصاراً منه في الطب . والذي استرعى انتباهه في هذا الحقل هو توصّل العلماء الى تطبيع الحيوان والنبات الغريب النادر بمناخ بلادهم من جهة ، وتوصلهم الى انتاج الثمار والأزهار في غير مواسمها من جهة ثانية .

يقول :

"وأغلب النباتات الغريبة توجد بهذه البلدة ، فإنهم يعتنون بتطبيع النباتات كالحيوانات الغريبة ببلادهم ، مثلاً شجر النخل لا يخرج إلا في الأقاليم الحارة ، ومع ذلك فإن الفرنساوية صنعوا كل الحيل حتى زرعوا منه شيئاً ، وإن كان لا يثمر ، الا انه ينفعهم في الرجوع اليه عند قراءتهم في علم النباتات "[٢] .

نجد في كلامه هنا إشارة الى خاصة المشاهدة والتجربة في العلم الغربي كشيء ملازم للجانب النظري في حقل المعرفة العلمية .

كذلك قوله :

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٣١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦٩ .

"وأنفع الأشياء بالنسبة للطبيعيات بمدينة باريس البستان السلطاني المسمى بستان النباتات ، وفيه سائر النباتات الأهلية التي يعالجون تطبّعها عندهم بقوة الصناعة والحكمة ، فيطالع طلبة علم العقاقير والحشائش دروسهم ، ويقابلون ما في الكتاب على ما يرونه ، ويأخذون فرعاً من كل صنف من الحشائش يضعونه في نحو ورقة ويكتبون اسمه وخاصيته "(١) .

ويقول في انتاج الثمار والأزهار في غير أوانها :

"وفي هذا السوق تجد سائر الأشجار والنباتات والأزهار الغريبة النادرة ولو في غير أوانها حتى ان الانسان يمكنه ان يجدد بستاناً في يوم واحد بأن يشتري سائر ما يحتاجه ثم يزرعه في يوم "(٢) .

لم يتحدث الطهطاوي في مادة الجغرافيا على التقنيات وعلى الجغرافيين الذين رآهم في باريس كما فعل في مجال الطب مثلاً ، فلقد اقتصرت معرفته في هذا الحقل على ما قرأه في كتبه . ولقد اعترف الطهطاوي بالسبق للغرب في هذا المجال ، يعين اهله على ذلك ازدهار تجارتهم وتجولهم في البلاد . ومرة جديدة كانت ثقة الطهطاوي بما حققه الغرب في هذا المجال مطلقة ، فهو يعتبر ان السبيل الوحيد الى الاطلاع على هذا العلم هو نقله عن الغرب الذي وضعه أو طوّره ودونه متوخياً في ذلك أسلم المناهج .

يقول :

"وقد اشتهر بين الخاص والعام ان طائفة الافرنج قد امتازت الآن بين الطوائف بالتجارات والمخالطة لسائر البلاد ، بل قد اتخذت معرفة البلاد وأحوالها سبباً ، وانتخبت بذلك نخباً ، فاتسعت معارفها في الجغرافيا والميقات ، ولا زالت في الزيادة في العلوم على سائر الاوقات،

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٦٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٥ .

فلا سبيل حينئذ في معرفة احوال البلدان والخلايق الا بنقلها عمن حققها من الافرنج ، ودونها في الكتب وسلك في بيانها اسهل نهج ، ولا شك ان من اعلم الافرج وأحكمهم طائفة الفرنسيس ، فانها الان بلاد الفنون والصنايع من غير شك وتلبيس "[١] .

ولقد ترجم الطهطاوي مؤلفات عدّة[٢] في علم الجغرافيا ، بعد ان عرف خطره ، وبعد ما رآه من اهتمام الغرب به وتصنيفه له كواحد من العلوم الأساسية .

يقول :

" ثم إن فائدة الجغرافية معروفة من قديم الزمان وسالف العصر والأوان ، وهي نفعها في المعاملات والمخالطات ، والاطلاع على غرائب البلاد وما يوجد فيها ، على أن لها فائدة اخرى وهو توقف علم التاريخ العام عليها "[٣] .

وفي تعزيز الغرب لهذا العلم يقول :

"ولا زال الفرنساوية الى الآن يسارعون في إعانة أهل هذا الفن النفيس على تحريره وتهذيبه ، والبحث عما كان من بعيده وقريبه [...] وقد صدرت خلاصة من مشورة العلوم العُظمي في مدينة باريس ولا زال معمولاً بها عندهم دائماً بأن علم الجغرافية يُعد من العلوم المبادىء ، أي أصول العلوم ، فيكون لا بد من معرفته قبل الدخول في المدارس

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، مقدمة ترجمته قلائد المفاخر في غريب عوائد الأوائل والأواخر ، ص ٣٥٠ ، ٣٥١ .

(٢) راجع الأعمال الكاملة ، المقدمة .

(٣) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، مقدمة ترجمته التعريبات الشافية لمريد الجغرافية، ص ٣٦١ .

الكبرى [...] ولا بأس بهذا الأمر "[١] .

ولم يُفصّل الطهطاوي القول في العلوم الأخرى ، ولعلّه اكتفى بالعلوم التي اعتبرها أساسية أو أولية لقيام الدول ، أو انه اعتمد في العلوم الأخرى على ما ترجمه من الكتب في ميادين عدة كالهندسة والكيمياء والمعادن والتاريخ وغيرها [٢] .

- ب - الفنون والآداب :

اطلع الطهطاوي أثناء إقامته في باريس على طائفة من الفنون والآداب الفرنسية التي لاقت استحسانه ، فامتدح رقيّها وشدد على دورها التثقيفي وعلى انتمائها الى عالم الفن المرهف الهادف لا الى عالم اللهو والخلاعة .

ولقد أدرك الطهطاوي العلاقة الوثيقة بين العمران والحضارة من جهة وبين أنواع الفنون والآداب من جهة ثانية ، بحيث ترقى الحضارة برقي أنواع الفنون والآداب فيها وبالعكس . ولقد رأى الطهطاوي أن الفرنسيين يمتازون على غيرهم من البلاد في مجال الفنون وهم بالتالي متفوقون عليهم حضارياً .

يقول :

"من المعلوم ان البلدة أو المدينة تبلغ من الحضارة على قدر معرفتها وبعدها عن حالة الخشونة والتوحش ، والبلاد الافرنجية مشحونة بأنواع المعارف والآداب التي لا ينكر الانسان انها تجلب الانس وتزين العمران ، وقد تقرر ان الملة الفرنساوية ممتازة بين الأمم

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، مقدمة ترجمته التعريبات الشافية لمريد الجغرافيا، ص ٣٦٢ .

(٢) راجع الاعمال الكاملة ، المقدمة .

الافرنجية بكثرة تعلقها بالفنون والمعارف ، فهي أعظم أدباً وعمراناً "[١].

ولم يتوقّف الطهطاوي عند كلٍ من أنواع الفنون الفرنسية ، بل اختار بعضاً منها ، ونعتقد ان اختياره قد وقع على أنواع من الفنون كان قد عرف شكلاً من أشكالها في مصر ، وذلك ليبيّن أن هذا الفن أو ذاك يتغيّر لونه وأداؤه وهدفه بتغيّر السياق أو الجو الذي يتفتح فيه . فلقد تكلم مثلاً على فن الرقّص وعلى فن المسرح وشدد على أن كلاً منهما فنٌ هادفٌ راقٍ ، له قواعده وتقنياته ، وان أصحابه أناس مثقفون لا يخرجهم فنهم عن إطار الحشمة والحياء ومنهم من له مؤلفات وتصانيف في دنيا الأدب والفكر .

يقول في فن الرقص في باريس :

"وقد قلنا ان الرقص عندهم فن من الفنون ، وقد أشار إليه المسعودي في تاريخه المسمى (مروج الذهب) ، فهو نظير المصارعة في موازنة الاعضاء ودفع قوى بعضها الى بعض ، فليس كل قوي يعرف المصارعة ، بل قد يغلبه ضعيف البنية بواسطة الحيل المقررة عندهم ، وما كل راقص يقدر على دقائق حركات الاعضاء . وظهر ان الرقص والمصارعة مرجعهما – شيء واحد يعرف بالتأمل ، ويتعلق بالرقص في فرنسا كل الناس وكأنه نوع من العياقة والشلبنة ، لا من الفسق ، فلذلك كان دائماً غير خارج عن قوانين الحياء ، بخلاف الرقص في ارض مصر فإنه من خصوصيات النساء ، لانه لتهيج الشهوات ، وأما في باريس فإنه نط مخصوص لا يشم منه رائحة العهر أبداً "[٢] .

واضحٌ تفضيل الطهطاوي للرقص الغربي كفن هدفه تبليغ رسالة، على رقص النساء في مصر كضرب من ضروب الخلاعة هدفه تحريك الشهوات .

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٠٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٢ .

كما تحدث الطهطاوي بالتفصيل على فن المسرح ، فتناول الموضوعات التي تعالجها المسرحية والممثلين والاخراج . وفي كل عنصر من هذه العناصر المكونة للمسرح اكتشف الطهطاوي سمة جديدة تجعل إعجابه بهذا الفن اكبر .

يقول معرّفاً المسرح وما يدور على خشبته :

"فمن مجالس الملاهي عندهم محال تسمى "التياتر" ، و "السبكتاكل" ، وهي يعلب فيها تقليد سائر ما وقع ، وفي الحقيقة ان هذه الألعاب هي جد في صورة هزل ، فإن الإنسان يأخذ منها عبرا عجيبة، وذلك لانه يرى فيها سائر الاعمال الصالحة والسيئة ، ومدح الأولى وذم الثانية ، حتى ان الفرنساوية يقولون انها تؤدب اخلاق الانسان وتهذبها، فهي وان كانت مشتملة على المضحكات فكم فيها كثير من المبكيات ، ومن المكتوب على الستارة التي ترخى بعد فراغ اللعب باللغة اللاطينية ما معناه باللغة العربية : "قد تنصلح العوائد باللعب" "[١] .

وفي موضع آخر :

"وبالجملة ، فالتياتر عندهم كالمدرسة العامة يتعلم فيها العالم والجاهل"[٢] .

لقد وعى الطهطاوي هذا الدور التعليمي الاخلاقي للمسرح الفرنسي والغربي ، فهو مثال وعبرة في قالب من التمثيل والهزل .

والممثلون في هذا المسرح الهادف ، كما وصفهم الطهطاوي ، أصحاب فضل وأخلاق ، وهم مثقفون بعضهم من المؤلفين ، يعالجون في أدوارهم مسائل جدية واقعية ويمعنون في تحليلها " كأنهم من العلماء " .

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١١٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٠ .

يقول :

"واللاعبون واللاعبات بمدينة باريس أرباب فضل عظيم وفصاحة، وربما كان لهؤلاء الناس كثير من التآليف الادبية والاشعار ، ولو سمعت ما يجاوب به من التنكيت والتبكيت لتعجب غاية العجب .

ومن العجائب انهم في اللعب يقولون مسائل من العلوم الغريبة والمسائل المشكلة ، ويتعمقون في ذلك وقت اللعب حتى يظن انهم من العلماء ، حتى أن الأولاد الصغار التي تلعب وتذكر شواهد عظيمة من علم الطبيعيات ونحوها "(١) .

ولقد ركّز الطهطاوي على حشمة هؤلاء الممثلين ، فهدفهم وهدف المسرح عموماً ليس إغواء المتفرجين كما هي الحال عند عوالم مصر .

يقول :

"فانظر الى اللاعبين بها فانهم يحترزون ما امكن عن الأمور التي يُفتتن بها ، المخلة بالحياء ، ففرق بعيد بينهم وبين عوالم مصر وأهل السماع ونحوها "(٢) .

أعجب الطهطاوي أيضاً بتطور التقنيات المسرحية ، مما يسمح بتصوير مشاهد طبيعية متحركة غاية في الاتقان .

يقول :

"وفي هذه "السبكتاكل" يصورون سائر ما يوجد حتى انهم قد يصورون فرق البحر لموسى ، عليه السلام ، فيصورون البحر ويجعلونه يتماوج حتى يشبه البحر شبهاً كلياً ، وقد رأيت مرة في الليل انهم ختموا "التياتر" بتصوير شمس ان تسييرها وتنوير "التياتر" بها غلب

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٢٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢١ .

نور هذه الشمس على نور النجف حتى كأن الناس في الصباح ، ولهم أشياء أغرب من هذا "[١] .

لقد وجد الطهطاوي المسرح الفرنسي ، بكل أجزائه عظيم الفائدة فاستحسن دوره الهادف ، وأداء الممثلين وثقافتهم وسلوكهم ، وإخراجه المتقن إلا انه تحفّظ على ما سمّاه "النزعات الشيطانية" .

يقول :

"ولو لم تشتمل "التياتر" في فرنسا على كثير من النزعات [٢] الشيطانية لكانت تُعد من الفضائل العظيمة الفائدة "[٣] .

ويمكننا تفسير النزغات الشيطانية ، بكل ما وجده الطهطاوي متعارضاً مع الشريعة الاسلامية ، وبكل ما نعته ، مما رآه في الغرب ، بالكفر والضلال .

وبإمكاننا أن نفهم ما عناه الطهطاوي بهذه العبارة إذا ما قرأنا آراءه في الآداب والفلسفة الفرنسية ؛ فهو يعتبر النتاج الفكري الغربي جيداً ومفيداً ومما ينبغي الاطلاع عليه ولكنه ، كالمسرح يحمل في طياته كفراً وبدعاً .

يقول في الآداب الفرنسية :

"ثم ان العلوم الادبية الفرنساوية لا بأس بها ، ولكن لغتها وأشعارها مبنية على عادة جاهلية اليونان وتاليفهم ما يستحسنونه ، فيقولون مثلاً : إله الجمال ، وإله العشق ، وإله كذا ، فألفاظهم في بعض الأحيان كفرية صريحة ، وإن كانوا لا يعتقدون ما يقولون ، وانما هذا من باب التمثيل ونحوه . وبالجملة فكثير من الأشعار الفرنساوية لا

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٢٠ .

(٢) النزغات كما وردت في القرآن .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٢١.

بأس بها "[١] .

وفي كتب الفلسفة يقول :

"ان كتب الفلسفة بأسرها محشوة بكثير من هذه البدع [...] فحينئذ يجب على من اراد الخوض في لغة الفرنساوية المشتملة على شيء من الفلسفة ان يتمكن من الكتاب والسنة حتى لا يفتر بذلك ولا يفتر عن اعتقاده ، والا ضاع يقينه ، وقد قلت جامعاً بين مدح هذه المدينة وذمها :

أيوجد مثل باريس ديار   شموس العلم فيها لا تغيب
وليل الكفر ليس له صباح   أما هذا وحقكم عجيب ! "[٢] .

وتلخص هذه الأبيات الأخيرة موقف الطهطاوي من العلوم الغربية، ومن الغرب عموماً ، فهو ينشد الغرب ويمدحه في مادة العلوم ولكنه يطعن به ويحذره ويحذّر منه في مادة الأديان .

كقوله مثلاً في موضع آخر :

"غير ان لهم في العلوم الحكمية حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية ، ويقيمون على ذلك أدلة يعسر على الانسان ردّها ، وسيأتي لنا كثير من بدعهم وننبه عليها في محالها "[٢] .

- ج - اللغة :

وعى الطهطاوي في الغرب ، وظيفة اللغة كأداة لنقل الفكر ،

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ٨٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

وأدرك العلاقة المباشرة بينها وبين المعرفة في مختلف أشكالها . فللغة بسلامتها وسلاستها واتساعها ، دور أساسي في تقدّم العلوم والفنون .

ولقد وجد الطهطاوي كل هذه المميزات في اللغة الفرنسية ، فبساطة هذه اللغة ووضوحها وخلوّها من اللبس تجعل منها وسيلة فعّالة لنقل العلوم وابلاغها الى القارىء دون أن يكلّفه ذلك مشقة كبيرة، بحيث يتركز جهده على الجانب العلمي أي مضمون اللغة فيتفرغ لفهم هذا العلم ، بدل أن يوزّع طاقته بين استجلاء غامض اللغة وغامض العلوم في آن واحد .

يقول :

"وبالجملة فلا يحتاج قارىء كتاب ان يطبق ألفاظه على قواعد أخرى برانية من علم آخر ، بخلاف اللغة العربية مثلاً ، فإن الانسان يطالع كتاباً من كتبها في علم من العلوم يحتاج ان يطبقه على سائر آلات اللغة ، ويدقق الألفاظ ما امكن ، ويحمل العبارة معاني بعيدة عن ظاهرها . وأما كتب الفرنسيس فلا شيء من ذلك فيها ، فليس لكتبها شراح ولا حواشي الا نادراً ، وانما قد يذكرون بعض تعليقات خفيفة تكميلاً للعبارة بتقييد أو نحوه ، فالمتون وحدها من أول وهلة كافية في إفهام مدلولها ، فإذا شرع الانسان في مطالعة كتاب في أي علم كان تفرغ لفهم مسائل ذلك العلم وقواعده من غير محاكاة الالفاظ ، فيصرف سائر همته في البحث عن موضوع العلم وعن مجرد المنطوق والمفهوم وعن سائر ما يمكن انتاجه منها ، وأما غير ذلك فهو ضياع "[1] .

وفي سهولة اللغة الفرنسية وخلوّها من اللبس يقول :

"ومن جملة ما يعين الفرنساوية على التقدم في العلوم والفنون سهولة لغتهم وسائر ما يكملها ، فإن لغتهم لا تحتاج الى معالجة كثيرة في تعلمها ، فأي إنسان له قابلية وملكة صحيحة يمكنه بعد تعلمها أن يطالع أي كتاب كان ، حيث انه لا التباس فيها أصلاً ، فهي غير

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٦٠.

متشابهة، وإذا أراد المعلم أن يدرس كتاباً لا يجب عليه أن يحل ألفاظه أبداً ، فإن الألفاظ مبينة بنفسها "[1] .

كما لاحظ الطهطاوي أن ترجمة المصطلحات المستجدة في لغات أصحابها الى الفرنسية جعل من الفرنسية لغة غنية وعيبة تواكب تطور العلوم وترصد سير حركتها . ولقد ميّز الطهطاوي بين اتساع اللغة بكثرة مصطلحاتها وبين اتساعها بكثرة مرادفاتها ومحسناتها اللفظية كما هي حال اللغة العربية .

يقول :

"ثم حين برع الفرنساوية في العلوم نقلوا كلمات العلوم من لغات اهلها ، وأكثر الكلمات الإصطلاحية يونانية ، حتى كان لسانهم من أشيع الألسن واوسعها بالنسبة لكثرة الكلمات غير المترادفة لا بتلاعب العبارات والتصرف فيها ، ولا بالمحسنات البديعية اللفظية ، فانه خال عنها ، وكذا غالب المحسنات البديعية المعنوية ، وربما عندما يكون من المحسنات في العربية ركاكة عند الفرنسيس "[2] .

ونتبيّن من تشديد الطهطاوي على اتساع اللغة بكثرة المصطلحات لا المترادفات ، انه يريد منها ان تغتني بتقدم الزمن لتلبّي حاجة العصر ومستجداته . إلا انه معلوم لدينا أن كثرة المرادفات دليل أكيد على اتساع اللغة وغناها ، ولا بد أن الطهطاوي قد وعى هذا الامر ، ولكن ما سعى اليه الطهطاوي هو النهوض بالوطن عن طريق نهضة العلوم ، لذلك تحتّم على اللغة ، بما لديهامن مصطلحات ، ان تكون خير وعاء لنقل هذه العلوم ، والتعبير عن محتواها بما تستطيعه من الدقة والأمانة .

ولقد توقّف الطهطاوي عند عناية الفرنسيين بمصطلحات العلوم

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٦٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨١ .

والفنون أياً يكن شأنها ، فهم يصنّفون مصطلحات العلم الواحد في قواميس مرتبة على حروف المعجم ، مما يدل على اتساع هذه اللغة وغناها بالمصطلحات ، وعلى عناية الفرنسيين بحفظها وتنسيقها .

يقول :

"ثم إن الفنون باللغة الفرنساوية قد بلغت درجة اوجها ، حتى ان كل علم فيه قاموس مرتب على حروف المعجم في الفاظ العلم الاصطلاحية ، حتى علوم السوقة ، فانها لها مدارس كمدرسة الطباخة ، يعني مجلس علماء الطباخة وشعرائها ، وإن كان هذا من انواع الهوس غير أنه يدل على اعتناء هذه البلاد بتحقيق سائر الأشياء ولو الدنيئة "[١] .

لقد عرف الطهطاوي في الغرب القيمة الحقيقية للغة ، وعرف انها من أسباب تقدمه في العلوم ، كما رأى العلاقة المتبادلة بينها وبين العلوم فهي تسهم في تطور العلوم ببساطتها ووضوحها وعلميتها ، وتسهم العلوم بدورها في إغناء اللغة بالمصطلحات ، أو بالمستجدات التي تستوجب مصطلحات لها . ونستشهد هنا بقول محمد عمارة في موقف الطهطاوي من اللغة في الغرب :

"إن هذه الحقائق اللغوية الجديدة التي تفتحت عليها عين رفاعة ، أول ما تفتحت وهو في باريس ، كانت وراء جهوده الرائدة في محاولة إصلاح طرق تعليم العربية بعد عودته الى بلاده ، تلك الجهود التي كان من بينها كتابه : (التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية) "[٢] .

– ٢ – العلماء :

تعرّف الطهطاوي في باريس الى فئة من العلماء لم يعرفها في

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ٨٨ .

(٢) عمارة ، رفاعة الطهطاوي ، رائد التنوير في العصر الحديث ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

بلاده ؛ فلقد رأى أن العلماء في الغرب يبلغون درجة عالية من العلوم ، وأنهم بعد تحصيلهم للعلوم العامة يتخصصون في فرع معين . ولقد أشاد الطهطاوي بدأب هؤلاء العلماء وانكبابهم على الدراسة والبحث والتأليف والتجديد . ثم قارن بينهم وبين علماء مصر ، فميّز بين مفهوم العالم في الغرب ، وبينه في الشرق .

ولم تكن مصر تغيب عن بال الطهطاوي في كل ما كان يراه ويدرسه في الغرب . ويكاد حديثه على باريس والغرب ان يكون دراسة مقارنة وإن كان ينقصه المنهج ؛فلقد كان الطهطاوي ، في كل ما تناوله وحكم عليه من مظاهر غربية ، ينطلق من مشاهداته وخبراته التي حملها من بلاده .

ولقد توقف الطهطاوي عند المتطلبات التي يشترطها الفرنسيون في العالم قبل ان يصبح في عرفهم مستحقاً لهذا اللقب . فهو إن لم ينطلق من ثقافة علمية عامة الى تخصص ما يحقق فيه جديداً لا يُعتبر مستحقاً للدرجة التي تكرسه عالماً . وكان الطهطاوي إذ يعي كل هذا إنما يسترجع في ذهنه بالمقارنة مفهوم العالم في بلاده .

يقول :

"وأما علماؤهم فانهم منزع آخر لتعلمهم تعلماً تاماً عدة أمور ، واعتنائهم زيادة على ذلك بفرع مخصوص ، وكشفهم كثيراً من الأشياء، وتجديدهم فوائد غير مسبوقين بها ، فإن هذه عندهم هي اوصاف العالم، وليس عندهم كل مدرس عالماً ، ولا كل مؤلف علامة ، بل لا بد من كونه بتلك الاوصاف ، ولا بد له من الدرجات [كذا] معلومة ، فلا يطلق عليه ذلك الاسم إلا بعد استيفائها والارتقا [كذا] لها "[1] .

ففي قوله "وليس عندهم كل مدرس عالماً ولا كل مؤلف علامة" إشارة واضحة وإن خجولة الى من كان يُعتبر عالماً في مصر .

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٦١ .

ولقد توقف الطهطاوي عند مواظبة هؤلاء العلماء على الدراسة والعمل وتميّزهم بكثرة الانتاج .

يقول مادحاً جومار أحد أساتذته في البعثة :

"وشهرة معارف مسيو "جومار" وحسن تدبيره يوقع في نفس الانسان من اول وهلة تفضيل القلم على السيف ، لانه يدبر بقلمه ما لا يدبر غيره بسيفه الف مرة ، ولا عجب فبالاقلام تساس الاقاليم ، وهمته في مصالح العلوم سريعة كثيرة التأليف والاشتغال ، والغالب أن هذه الخصلة في سائر علماء الافرنج ، فإن مثل الكاتب كالدولاب إذا تعطل تكسر ، وكالمفتاح الحديد إذا ترك ارتكبه الصدأ ، وجناب مسيو جومار يشتغل بالعلوم آناء الليل وأطراف النهار "[1] .

كان الطهطاوي أثناء حديثه على العلماء شديد الحرص على التمييز ، لا من حيث المستوى فقط بل من حيث النوع وشمولية المعرفة ايضاً ، بين علماء مصر وعلماء الغرب . إن كلمة علماء في مصر، تعني علماء في الدين ، بينما تدل هذه الكلمة في الغرب على العاملين في العلوم العقلية او الحكمية كما يسميها اي العلوم التجريبية من غير ان يعني ذلك استبعاداً للدين . فالعالم في الغرب ليس بالضرورة عالماً في الدين او قسيساً على انه قد يكون عالماً في الدين وفي غيره من الفروع في وقت واحد .

يقول :

"ولا تتوهم ان علماء الفرنسيس هم القسوس ، لان القسوس إنما هم علماء في الدين فقط ، وقد يوجد من القسوس من هو عالم ايضاً وأما ما يطلق عليه اسم العلماء فهو من له معرفة في العلوم العقلية ، ومعرفة العلماء في فروع الشريعة النصرانية هينة جداً ، فإذا قيل في فرانسا هذا الانسان عالم ، لا يفهم منه انه يعرف في دينه ، بل انه يعرف علماً من العلوم الأخر ، وسيظهر لك فضل هؤلاء النصارى في

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ٣٦ .

العلوم عمن عداهم ، وبذلك تعرف خلو بلادنا عن كثير منها ، وان الجامع الأزهر المعمور بمصر القاهرة ، وجامع بني امية بالشام ، وجامع الزيتونة بتونس ، وجامع القرويين بفاس ، ومدارس بخارى ، ونحو ذلك كلها زاهرة بالعلوم النقلية وبعض العقلية ، كعلوم العربية والمنطق ونحوه من العلوم الآلية "[1] .

وفي موضع آخر يقارن الاكاديمية الفرنسية بالازهر ، وينتهي الى الجزم بأن علماء بلاده وان اعتبروا فيها على رأس الهرم العلمي ، فهم في الواقع مقصّرون ومتخلفون كثيراً عن مقتضيات علوم العصر ومعارفه .

- ٣ - ثقافة الفرد :

توفرت للطهطاوي بفعل احتكاكه بفئات مختلفة من الشعب الفرنسي ، معرفة دقيقة بأحوال هؤلاء الناس ، وبما يختص بعوائدهم وطباعهم وثقافتهم . وسنتكلم على ذلك بالتفصيل في فصل لاحق ، مقتصرين القول هنا على ثقافة الفرد الفرنسي وذلك لصلتها بالسياق العام لهذا الفصل الذي يتمحور على الحياة العلمية .

رأى الطهطاوي أن المستوى الثقافي في فرنسا خاصة وفي الغرب عموماً مرتفع نسبياً ، لشيوع التعليم واتقان معظم الناس القراءة والكتابة ومبادىء العلوم الضرورية ، وذلك إلى جانب ميلهم الفطري الى تحصيل المعارف وحبهم للاطلاع .

ولقد ادرك الطهطاوي ان ثقافة الفرد الفرنسي تبدأ منذ الطفولة، إذ لا بد من دخول الاطفال الى المدارس لتحصيلهم الحد الادنى من المعلومات ومن المبادىء الاساسية التي يحتاجونها في حياتهم العملية فيما بعد . ولقد رأى أن بعض دول الغرب قد جعلت دخول البنين والبنات المدارس أمراً إجبارياً . ولم يغفل الطهطاوي دور التربية ،

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٦١ .

التي ينعم بها الطفل الفرنسي ، في تفتيح ذهنه وجعله قابلاً للتحصيل والفهم والنقاش .

يقول الطهطاوي في أطفال الفرنسيين وفي تربيتهم :

"فإنهم بارعون للغاية من صغرهم ، فالواحد منهم كما قال الشاعر:

عشق المعاني وهو بعد مراهق وافتض أبكار الفنون وليدا"

فإنك قد تخاطب الصغير الذي خرج من سن الطفولية عن رأيه في كذا وكذا فيجيبك – بدلاً عن قوله : لا اعرف اصل هذا الشيء – ما معناه : الحكم على الشيء فرع عن تصوره ، ونحو ذلك ، فأولادهم دائماً متأهلون للتعلم والتحصيل ، ولهم تربية عظيمة ، وهذا في الفرنسيس على الاطلاق ، والعادة انهم لا يزوجون اولادهم قبل تمام تعلمهم ، وهذا يكون غالباً في عشرين الى خمس وعشرين سنة ، فقل منهم من كان في سن العشرين ولم يبلغ درجة التدريس او تعلم صنعته التي يريد تعلمها "[1] .

ويقول ايضاً في شيوع التعليم في الغرب :

"ثم يدخل كل من الغلمان والبنات المدارس المعدة لهن ، وفي بعض بلاد جرمانيا دخول المدارس للبنات والغلمان واجب قانوناً ، حتى عد ان في بروسيا سدس الأهالي يتعلمون في المكاتب ، ويقرب من هذا تعليم جمهورية السوسة [Suisse] ومملكة بلجيقا والفلمنك وممالك امريقة المتحدة ، فلهذا كان ابناء اوروبا وامريقة ذكوراً واناثاً يحسنون في الغالب القراءة والكتابة بالضبط الشافي ، ويعرفون مبادىء المعارف التي يتزين بها عقل الانسان ، وهذا يشترك فيه عموم الاهالي ، وأما التربية الوسطى والعالية فهي مخصوصة باربابها "[2] .

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٦٠ ، ١٦١ .

(٢) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، المرشد الأمين ، ص ٢٩٥ .

فلقد أفاق الطهطاوي على المكانة التي يمنحها الغرب للمدرسة حتى جعل دخولها إجبارياً لكافة الأطفال ذكوراً وإناثاً ، ووعى أيضاً مسألة تعليم المرأة ومساواتها بالرجل في هذا المجال ، كما أدرك أن تحصيل عموم الناس حداً معيناً من العلوم الأساسية أمر ضروري يساعدهم في حياتهم العملية حتى ولو أرادوا ان يتعلموا الصنائع الدنيئة كما يسميها لأن سائر العلوم والصنائع مدون في الكتب وعليهم أن يرجعوا إليها إذا أرادوا إتقان صنعتهم .

يقول :

"وسائر العلوم والفنون والصنائع مدونة في الكتب ، حتى الصنائع الدنيئة ، فيحتاج الصنائعي بالضرورة الى معرفة القراءة والكتابة لاتقان صنعته"(١) .

ومن الأمور التي تسهم في رفع المستوى الثقافي ، ذكر الطهطاوي الامتحان كوسيلة لاختبار الطالب ، وكدليل علمي قاطع على بلوغه مرتبة معينة من العلم .

يقول :

"اعلم ان من عادة الفرنساوية ان لا يكتفوا في العلم بمجرد شهرة الانسان بالفهم او الاجتهاد او بمدح المعلم في المتعلم، بل لا بد عندهم من ادلة واضحة محسوسة تفيد الحاضرين في الامتحان قوة الانسان ، والفرق بينه وبين امثاله ، وهذا يكون بالامتحانات العامة "(٢).

ونستشف ، من خلال هذه العبارة وعي الطهطاوي لشأن الدليل الحسي في التجربة اذا شئناها تجربة علمية واذا اردنا الحصول على نتائج اكيدة . وبكلمة اخرى لقد وعى الطهطاوي دور النهج العلمي الذي

---

(١) رفاعة الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ٧٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٩٥ .

يعتمد على الاختبار وعلى الادلة المحسوسة لإثبات او إنكار مسألة ما ، وذلك على عكس النهج الاعتباطي التقريبي الذي لا يعتمد التجربة ويفتقد الى الدليل والذي تأتي نتائجه قلقة غير مضمونة .

ولقد تحدث الطهطاوي على فطرة وميل عند الفرنسيين الى المعرفة والتحصيل ، إذ وجد بينهم نسبة عالية من المثقفين المتعمقين في العلوم وإن لم يكونوا من العلماء ؛ كما رصد حركة المكتبات وتجارة الكتب فوجد انها ناشطة تغتني كل يوم بالجديد من المؤلفات مما يدل على اهتمام الفرنسيين بها وتشجيعهم لها .

يقول في حب الفرنسيين للمعرفة :

"ثم ان الفرنسيس يميلون بالطبيعة الى تحصيل المعارف ، ويتشوقون الى معرفة سائر الاشياء ، فلذلك ترى ان سائرهم له معرفة مستوعبة اجمالاً لسائر الأشياء ، فليس غريباً عنها ، حتى انك إذا خاطبته تكلم معك بكلام العلماء ، ولو لم يكن منهم ، فلذلك ترى عامة الفرنساوية يبحثون ويتنازعون في بعض مسائل علمية عويصة "[1].

وينتج عن حب الفرنسيين للبحث والمعرفة اهتمامهم بالكتب ، وبالتالي ازدهار حركة المكتبات وتجارة الكتب ، ولقد لاحظ الطهطاوي ان معظم الفرنسيين وعلى اختلاف فئاتهم يملكون شيئاً من الكتب في بيوتهم .

"ولكل انسان من العلماء أو الطلبة أو الأغنياء خزانة كتب على قدر حاله ، ويندر وجود انسان بباريس من غير ان يكون تحت ملكه شيء من الكتب ، لما ان سائر الناس تعرف القراءة والكتابة ، وسائر بيوت الأعيان فيها خلوة مشتملة على خزانة الكتب ، وعلى آلات العلوم وأدواتها ، وعلى التحف الغريبة التي تتعلق بالفنون كالأحجار التي يبحث عنها علم المعادن ونحو ذلك "[2] .

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٦٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٦٣ .

وفي غزارة الانتاج ورواج تجارة الكتب :

"ومما يبهر العقول في باريس دكاكين الكتبية وخاناتهم وتجارات الكتب ، فانها من التجارات الرائجة ، مع كثرتها ، وكثر المطابع ، وكثرة التآليف التي تنطبع كل سنة ، فإنها يعسر حصرها ، وأغلبها المقصود منه الكسب لا النفع ، ولا تمر سنة بمدينة باريس الا ويخرج من المطبعة كتب معدومة النظير ، واعتناؤهم بالمعارف هو أحسن ما ينبغي ان يمدحوا به "(١) .

بلغ إعجاب الطهطاوي بالحياة العلمية الغربية حدّ الافتتان ؛ فكان يصف كل ما وقع عليه من علوم وعلماء وأماكن علم باعجاب وحب واحترام عميق . وكان كمن خرج من كهفه المظلم الى النور ، فابتهج بمعالم الاشياء من حوله وانبهر بها .

ولقد كان الحقل العلمي اوسع من أن يلم به الطهطاوي باكمله فلم يستطع ان يحدثنا عن كل ما رآه ولكنه وفي الوقت نفسه لم يغفل الامور الأساسية ، خصوصاً تلك التي من شأنها ان تنير ابناء وطنه .

وإذا نظرنا الى ما تقدم استطعنا ان نخرج بعدة نتائج .

أولاً : لقد رأى الطهطاوي العلوم الغربية وأدرك مدى تطورها ووعى دورها في النهوض بالوطن ، واعتبر ان هذه العلوم هي لب الحضارة الغربية وسر نجاحها ، لذلك دعا أبناء وطنه إلى الاعتراف بسبق الغرب لهم في هذا المضمار والى تبني هذه العلوم من دون خوف.

يقول :

"فإذا نظرت بعين الحقيقة رأيت سائر العلوم المعروفة معرفة تامة لهؤلاء الافرنج ناقصة او مجهولة بالكلية عندنا،

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٧٢ .

ومن جهل شيئاً فهو دون من اتقن ذلك الشيء ، وكلما تكبر الانسان عن تعلمه شيئاً مات بحسرتـه ! فالحمدلله الذي قيد[1] ولي النعمة لانقاذنا من ظلمات جهل هذه الاشياء الموجودة عند غيرنا "[2] .

ثانياً :لم تتوقف نظرة الطهطاوي الى العلوم عند حد الوصف والترجمة والدعوة الى التبني ، بل تعدت ذلك الى المنهج والأسلوب الذي به تُدرس هذه العلوم وتُدَّرس . فلقد وعى الطهطاوي شأن الاختصاص في دفع عجلة العلوم وفي تعزيز كفاءة العالم وتمكنه من علمه .

كما وعى دور التجربة والمشاهدة في البحوث العلمية . وبكلمة أخرى لقد تعرّف الطهطاوي الى العلم التجريبي الذي لا يعترف الا بما يؤكده الاختبار ، وعرف ان هذا النهج العلمي يمتد الى مجالات أخرى غير الأبحاث العلمية كمسألة الامتحان الذي وصفه بأنه دليل حسي على كفاءة الطالب . وبالجملة ، فإن الطهطاوي قد وعى الروح العلمية التي يتحلى بها الغرب في مجال المعرفة .

ثالثاً : أدرك الطهطاوي دور اللغة كوعاء للفكر وآمن بقدرتها على التطور والاغتناء عن طريق الترجمة من اللغات الاخرى فيتم لها بذلك أن تواكب الحاجات المستجدة . ولقد لمس الطهطاوي تأثير سلامة اللغة وسهولتها على سير حركة العلوم بحيث تلبي حاجة المؤلف في التعبير، وتسهل مهمة القارىء في الفهم . فلا تتحول ، كما في العربية الى علم قائم في ذاته بغض النظر عن الموضوع العلمي الذي تستخدم للتعبير عنه .

رابعاً : وعى الطهطاوي الدور التعليمي والتثقيفي للفن في الغرب ، وأدرك أنه رسالة راقية هادفة وليس لهواً وخلاعة

---

(١) قيض .

(٢) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ٢٣ .

وتسلية ، ولقد تحفّظ في هذا المجال على بعض أمور سماها "نزغات شيطانية" نفترض انها مما يتعلق بمادة الاديان القديمة وألهتها كما استغلها المسرح الفرنسي . وتجدر الإشارة الى ان تحفظ الطهطاوي هذا كان اكثر وضوحاً في الآداب والفنون والفلسفة منه في العلوم التجريبية . ومع انه ذكر في مقدمة تخليص الابريز ان للغرب حشوات ضلالية في العلوم الحكمية الا انه لم يشر اليها في مواضعها كما وعدنا.

وبالجملة ، لقد كان الطهطاوي حذراً حيال كل ما رآه في الغرب ودعا الى تبنيه ، فكان يحرص ، في دعوته الى تبني العلوم الغربية او الاطلاع على الفكر الغربي ، على الا ينحرف من يدعوه اليه عن خط الايمان وعن حد الشرع وينجرف في تيار البدع والنزعات الشيطانية . لذلك كان الطهطاوي يستحسن امراً ويدرك فوائده ويذكرها ولكنه كان ينبّه الآخرين ويدعوهم الى التسلح بالايمان العميق قبل الشروع في دراسته او الاطلاع عليه . وحين كان الطهطاوي يأمن هذا الجانب ويرى أن الأمر الذي يستحسنه خالٍ عن تلك النزعات وانه لا يتعارض مع الشريعة كان يدعو الناس الى نقله وتبنيه .

هكذا كان موقفه مثلاً من الطب الغربي :

"ومن المعلوم ان هذا مبني على ما تحقق ، أن الاطباء ببلاد الافرنج لهم حذق في علم الطب ، ومعرفة خواص الاشياء اكثر من غيرهم ، لان علومهم الدينية على قواعدهم غير مدونة لعلمائهم المتبحرين ، بل يرجعون فيها إلى ما تقوله أحبارهم من التحليل والتحريم وغير ذلك ، فهم في غنية عن تدوينها وبهذا السبب كثر اشتغالهم في علوم الأوائل ، كالطب والتنجيم والرياضيات والمنافع والصنائع ، فلهم مهارة في سياسة الطبيعة الانسانية وفي الادارة الملكية والمنزلية ، واليهم المرجع في معرفة ذلك إن عرفنا صدقهم في شيء منه بقرائن الاحوال والتجربة، فيقل قولهم فيه ، لانه من قبيل المعاملات لا الديانات [...] فثمرات افكارهم العقلية التي لا تناقض السمعيات مقبولة ، كما ان ثمرات اشغالهم وصنائعهم المعاشية ، التي

بها حسن الرفاهية ، غير مردودة ، إذا كانت لا تنابذ الشرع ، فتكون داخلة في البدع المستحسنة "[١] .

ونشير هنا الى أن الطهطاوي قد وعى عاملاً أساسياً في تطور العلوم في الغرب وهو طبيعة دينهم . فالعلماء في الغرب غير مقيدين بنصوص مدونة في التحريم والتحليل وانما يرجعون في هذه المسألة الى احبارهم الذين يحكمون بمقتضى الظروف . وبكلمة اخرى ، لقد وعى حرية البحث عند العالم الغربي .

نشير أخيراً الى ان الطهطاوي ، على ما رآه من دور العلوم العقلية أو الحكمية في قيام الدول وازدهار الحضارات ، قد مال في آخر الامر إلى تفضيل العلوم الشرعية على تلك العلوم . وهو يريد من أهل وطنه ان يلموا بهذين الفرعين من العلوم حتى تكتمل سعادتهم ، ولكن اذا لم يستطيعوا التوفيق بينهما فالافضلية للعلوم الشرعية .

يقول :

"وأفضل العلوم : علم دين الله وشرائعه ، فإن به حفظ الايمان والاسلام اللذين هما من أجل ودائعه "[٢] .

وفي موضع آخر :

"وإذا لم يكن الى معرفة جميع العلوم سبيل ، وجب صرف الاهتمام الى معرفة أهمها ، والعناية بأولها وأفضلها ، فأولى العلوم وأفضلها العلوم الشرعية التي بمعرفتها جميع الناس يرشدون وبجهلها يضلون ولا يهتدون "[٣] .

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، رسالة البدع المتقررة في الشيع المتبربرة ، ص ١٠٣ .

(٢) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، المرشد الأمين ، ص ٧١٢ .

(٣) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، مناهج الألباب ، ص ٢٨٦ .

الفصل الرابع

الحياة الدينيــة

جاء انطباع الطهطاوي على مظاهر الحضارة الغربية جيداً في معظم الاحيان إلا في ما يتعلق بالحياة الدينية ، فلقد اتّسم كل ما ذكره في هذا الباب ، على قلّته ، بالسلبية .

إن أول ما نعت به الطهطاوي باريس ، وقبل أن يراها هو الكفر ، ثم عاد بعد أن رآها وعاش فيها بضع سنين ، فنعتها بالكفر ، ومرد هذه الصفة التي أطلقها الطهطاوي على باريس وعلى الغرب بشكل عام إلى أمرين :

الأول ، هو أن الطهطاوي يعتبر القيام على دين النصارى كفراً ، فهو وفي مناسبات عدّة يشجب بالعبارة الصريحة تنصّر بعض المسلمين ناعتاً اياهم بالكفر . كما أنه يتحدث على ما يسميّه بدع القسيسين ويستنكر طقوسهم وتعاليمهم وعاداتهم ويذمّها .

والثاني ، هو أن الطهطاوي على ما يبديه من تحفظ تجاه الديانة المسيحية الكاثولوكية كما كانت عليه في الغرب ، يستنكر عدم اتباع الفرنسيين والغربيين تعاليم دينهم واحتقارهم لأمور العبادات والطقوس والقسوس بشكل يكاد يكون مطرداً .

ولا تخلو نظرة الطهطاوي إلى الغرب الديني من بعض اضطراب وتعثّر ، فموقفه هو من الدين المسيحي غير واضح ، ومتعارض مع ما يأتي به من شواهد قرآنية تقر بالمسيحية وتدعو الى احترامها ، ثم إن استهجانه لخروج الفرنسيين على تعاليم دينهم ، واستخفافه واستخفافهم ، في نفس الوقت ، بهذه التعاليم يدعوان الى التساؤل عما إذا كان الطهطاوي مقتنعاً بوجوب تقيُّد الفرنسيين بتعاليم هذا الدين .

وصف الطهطاوي مدينة باريس والغرب من ورائها ، بالكفر والفحش والضلال ، وبالرغم من افتتانه بمظاهر الحضارة الغربية ، لم

يكن راضياً عما رآه وعايشه في الغرب في مادة الأديان . يقول في الصفحات الأولى من تخليص الابريز :

في ذكر ما يظهر لي من سبب ارتحالنا إلى هذه البلاد ، التي هي دار كفر وعناد "(١) .

وفي نظرة أشمل يقول :

"وبالجملة ، فهذه المدينة كباقي مدن فرانسا وبلاد الافرنج العظيمة مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات، وإن كانت مدينة باريس من احكم سائر بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية "(٢) .

ولا نعرف ماذا يقصد الطهطاوي بالتحديد بالفحش والبدع والضلال ، ولكن ما نعرفه جيداً هو أن كل ما يستنكره الطهطاوي في الغرب هو مما يتعلق بمادة الأديان والأخلاق .

والذي نفهمه من خلال حديث الطهطاوي على باريس وعبر تصريحه عن افتتانه بها أن العائق الوحيد لتسليمه المطلق بسبقها في كافة الميادين هو الكفر .

يقول :

"لئن طلقت باريساً ثلاثا فما هذا سوى لوصال مصر
فكل منهما عندي عروس ولكن مصر ليست بنت كفر"(٣).

ولسنا نعلم إذا كان الطهطاوي ينعت بلاد الغرب بالكفر لان أهلها على دين النصرانية أم لأنهم لا يتقيدون بتعاليم هذا الدين ؛ فنحن

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٦٣ .

نشعر في مواضع عدة بتحفظه حيال الدين المسيحي كقوله مثلاً "والعياذ بالله" بعد الحديث على مسلم تنصّر ، وفي مواضع أخرى نجده ينتقد خروج نصارى الغرب على دينهم .

يقول في تنصّر بعض المسلمين :

"ثم انه يوجد في مدينة مرسيليا كثير من نصارى مصر والشام الذين خرجوا مع الفرنساوية حين خروجهم من مصر ، وهم جميعاً يلبسون لبس الفرنسيس ، وندر وجود احد من الاسلام الذين خرجوا مع الفرنسيس ، فإن منهم من مات ومنهم من تنصر ، والعياذ بالله "[1].

وفي تنصّر إحدى المسلمات يروي الطهطاوي قصة طويلة لا بأس من ذكرها في هذا الموضع ، لانها تعبّر عن اضطراب نظرة الطهطاوي الى الغرب الديني .

يقول :

"ومثله ما حكاه لي بعضهم ان سر عسكر المسمى "منو" ، المتولى في مصر بعد قتل الجنرال كليبر كان اسلم في مصر نفاقاً ، كما هو الظاهر ، وتسمى عبدالله ، وتزوج ببنت شريف من اشراف رشيد ، فلما خرج الفرنسيس من مصر وأراد الرجوع أخذها معه ، فلما وصل رجع الى النصرانية ، وابدل العمامة بالبرنيطة ، ومكث مع زوجته وهي على دينها مدة ايام ، فلما ولدت وأراد زوجها ان يعمّد ولده على عادة النصارى لينصره ابت الزوجة ذلك ، وقالت : لا أنصر ولدي أصلاً ولا اعرضه للدين الباطل ، فقال لها الزوج : إن كل الأديان حق وان مآلها واحد ، وهو عمل الطيب ، فلم ترض بذلك ابداً ، فقال لها ان القرآن ناطق بذلك وانت مسلمة فعليك ان تصدقي بكتاب نبيك ، ثم ارسل بإحضار اعلم الافرنج باللغة العربية البارون دساسي ، فإنه هو الذي يعرف في القرآن ، وقال لها : سليه عن ذلك ، فسألته ، فأجابها بقوله: انه يوجد في القرآن قوله تعالى : (ان الذين آمنوا والذين هادوا

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ٥٦ .

والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون[1]) فحجها بذلك ، فأذنت بمعمودية ولدها ، ثم بعد ذلك انتهى الامر ، على ما قيل ، انها تنصرت وماتت كافرة "[2] .

ولا يخفى علينا ما في هذه الرواية من مفارقات ، فبنت شريف رشيد قد أبت ان تعرّض ابنها للدين الباطل ثم جاء زوجها بآيات من القرآن تثبت صحة هذا الدين وانه أسوة بالاسلام ، فقبلت بذلك ، وتنصرت بدورها الى أن ماتت كافرة ، فالمفارقة هي اتيان الطهطاوي بآية من القرآن تقر بهذا الدين ، ثم بعد ذلك نعته للمرأة المتنصرة بالكافرة .

فهل يعود هذا الاضطراب إلى البيئة التي نشأ فيها الطهطاوي وأفكار تلك البيئة التي تعتبر كل مسيحي كافراً؟ ولو كان الامر كذلك ، فلماذا يستهجن الطهطاوي عدم تقيّد الفرنسيين بدينهم ؟ لا سيما انه أسوة بهم، يستنكر بعض تعاليم الدين المسيحي او معظمها ، وأعمال القسيسين .

فالطهطاوي ، كالفرنسيين ، يصف عادات القسوس النصارى في الغرب بالمهولة والذميمة ، كما انه لا يتوانى عن نعتهم بالفسق .

يقول :

"ومن الخصال العادية المهولة ببلاد الفرنسيس او ببلاد النصارى القاثوليقية ، عدم الاذن بزواج القسيسين على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم ، فإن عدم زواجهم يزيدهم فسقاً على فسقهم ، ومن الخصال الذميمة ان القسيسين يعتقدون انه يجب على العامة ان يعترفوا لهم بسائر ذنوبهم ليغفروها لهم ، فيمكث القسيس في الكنيسة على كرسي يسمى كرسي الاعتراف ، فسائر من اراد ان يغفر ذنوبه ذهب الى كرسي الاعتراف داخل باب بينه وبين القسيس حائل كالشبكة ، فيجلس ثم

---

(١) البقرة ، ٦٢ المحقق .

(٢) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ٥٧ .

يعترف قدامه بذنوبه ، ويستغفره ، فيغفر له ، وقد عرف عندهم ان اكثر من يدخل الكنيسة أو يذهب إلى الاعتراف يكون من النساء والصغار "[١] .

ولا يقف اعتراض الطهطاوي ، في هذا الكلام ، عند أعمال القسوس بل يتعداه إلى التعاليم الكنسية ، من عدم زواج القسوس ، أو الاعتراف او غير ذلك .

وفي قوله واكثر من يذهب الى الاعتراف يكون من النساء والاولاد دليل على استخفافه ، واستخفاف الراشدين ذوي العقول الراجحة من اهل باريس بهذا الأمر.

ولم يتورّع الطهطاوي عن تسمية اعمال القسوس بالبدع ، واعتبارها من الأعمال الباطلة التي "تُدنّس" البلاد .

يقول :

"ومن جملة بدع القسيسين انهم يصنعون في عيد القربان موكباً ، ويلبسون فيه حللاً مطرزة ، ويدورون المدينة بشيء يسمونه "البونديو" - وكلمة "البونديو" مركبة من كلمتين ، الاولى "بون" ومعناها طيب او عظيم ، والثانية "ديو" ، ومعناها الاله ، فكأنهم يقولون إن الاله حاضر في الجحفة التي بين أيدي القسوس - والمراد عندهم "بالبونديو" عيسى عليه السلام . والفرنساوية يعرفون ان هذه الامور من باب الهوس الذي يدنس بلادهم ويذري[٢] بعقول اهلها ، غاية الامر ان العيلة السلطانية كانت تعين القسيس على هذه الامور فتمتثل الرعية لذلك مع غاية الحط والتشنيع . وللقسيسين بدع لا تحصى ، وأهل باريس يعرفون بطلانها ويهزؤن بها "[٣] .

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٥٦ .

(٢) يزري.

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٥٧ .

لقد لاحظ الطهطاوي أن رأيه في ممارسات القسوس يتفق مع رأي الفرنسيين الذين يعتبرونها من باب الهوس ومما يذهب بالعقول ، وأنهم يهزؤن بها ، والمدهش أن الطهطاوي يقول بعد ذلك :

"ولا تعظم القسس في هذه البلاد إلا في الكنائس عند من يذهب إليهم ، ولا يُسأل عنهم أبداً ، فكأنهم ليسوا إلا أعداء للانوار والمعارف ، ويُقال ان غالب ممالك الافرنج مثل باريس في مادة الأديان "[١] .

فكيف يجد الطهطاوي ما يقوم به القسوس مما "يزري بالعقول" ، ثم يعود بعد ذلك فيستنكر اعتبار الفرنسيين لهم أعداء للمعارف؟

أغلب الظن أن الطهطاوي ، على تحفظه تجاه الدين المسيحي وقسوسه وأعمالهم ، استغرب خروج الفرنسيين على دينهم بهذا الشكل المطرد او شبه المطرد ، واستغناءهم عن كل خدمات القسوس ، الباطلة منها والجيدة ، التافهة والضرورية . فبدع القسيسين ليست بحد ذاتها سبباً كافياً لعدم تقيّد الفرنسيين بفرائض دينهم كالصيام والصلاة ، أو لرفضهم مفهوم الدين أي الإيمان .

يقول الطهطاوي في ذلك :

"ان الفرنساوية على الاطلاق ليس لهم من دين النصرانية غير الاسم ، فهم داخلون في اسم الكتابيين ، فلا يعتنون بما حرمه دينهم ، أو أوجبه أو نحو ذلك ، ففي أيام الصيام في باريس لا ينقطع أكل اللحم في سائر البيوت الا ما ندر كبعض القسس وبيت ملك الفرنسيس القديم ، وأما باقي أهل المدينة فانهم يستهزؤن بذلك ولا يفعلونه ابداً ، ويقولون : إن سائر تعبدات الاديان التي لا تعرف حكمتها من البدع والأوهام "[٢] .

نستخلص مما تقدم جملة أمور :

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٥٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٥٥ .

أولاً : إن الطهطاوي لم يفصّل القول على الحياة الدينية ، ولقد كان اختصاره في هذا المجال لافتاً حتى امكننا القول ان كلام الطهطاوي على الحياة الدينية كان اشد اختصاراً من كلامه على اي من مظاهر الحضارة الغربية الباقية . ويمكن تفسير ذلك بطرق مختلفة ، أبرزها ان الطهطاوي رفض كل ما أتى به الغرب في مادة الأديان لأنها باطلة ، ولأن الاسلام ، في اعتباره ، هو الدين الحق ، ولأن مصر ليست بحاجة الى تبني ما يملكه الغرب في مادة الأديان أو بالأحرى ما لا يملكه . أو أنه أراد ان يتجنب ردود الفعل السلبية بين ابناء وطنه ، لما شاع بينهم من افكار واحكام مسبقة ترى فساد ديانة الغربيين وبطلان معتقداتهم ومخالفتها الصريحة لأحكام الشريعة الاسلامية .

ثانياً : إن نظرة الطهطاوي الى الغرب الديني لا تخلو من بعض اضطراب ، ولقد قلنا ان مرد ذلك غموض في نظرته الى الدين المسيحي بشكل عام . فهو ، مع إقراره الصريح بشرعية هذا الدين ، ينعت من دخل فيه من المسلمين بالكفر . فكيف يمكن تفسير ذلك ، اللهم الا اذا فهمنا ذلك على اساس حكم الاسلام بكفر المرتد . فالطهطاوي ، كمسلم ملتزم يعتبر ان الاسلام هو الدين الصحيح، ويسلّم بباقي الاديان تسليماً تاريخياً . وبمعنى آخر ، انه يسلّم بوجود هذه الاديان في الماضي ويعتقد إنها كانت على صورة تختلف عن صورتها الحاضرة .

ونعتقد ان هذا هو التفسير المنطقي الذي يمكنه أن يوفّق بين إتيان الطهطاوي بآيات من القرآن ثم تبنيه لموقف مناقض لها . ولذلك أيضاً نجده قد نعت المسلمين المتنصرين بالكفرة ، لمجرد خروجهم عما يعتبره الدين الحق الى دين آخر أقل صحة.

ثالثاً : إن ما يثبت عدم اقتناعه بالدين المسيحي كما رآه في الغرب هو انتقاده العنيف لأعمال القسيسين وسلوكهم ، ولقد عزا كل ما رآه من "شذوذ" في الممارسات الدينية الى القسيسين ولم ينتقد العقيدة المسيحية بحد ذاتها ، مما يؤكد

مرّة ثانية ان لدى الطهطاوي تصوراً للدين المسيحي يختلف عمّا كان يقوم به القسوس في أيامه .

رابعاً : على الرغم من كل ما يشوب الديانة المسيحية الغربية من ممارسات لم يرض عنها الطهطاوي ولا الفرنسيون انفسهم ، لم يجد شيخنا في هذه الشوائب حجة كافية لخروج الفرنسيين على دينهم ؛ فلقد رأى الطهطاوي ان الناس في باريس لا يتقيدون بتعاليم دينهم ولا يحترمونها ولا يقرّون بالأديان ولا يعرفون حكمتها . وبكلمة أخرى لقد وجد الطهطاوي أن اهل باريس وأهل الغرب عموماً لا يؤمنون بوجود الله . لذلك استجهن تخلّي الفرنسيين عن دينهم وإن كان بالنسبة إليه ديناً من الدرجة الثانية . فالمسلم كافر حين ينتصر والمسيحي كافر حين يتخلى عن دينه .

الفصل الخامس

الحياة الاجتماعية

تنبه الطهطاوي ، لدى إقامته في باريس ، إلى كثير من جوانب الحياة الاجتماعية الفرنسية ، وكان كل ما رآه جديداً بالنسبة إليه : جديدٌ لكون الطهطاوي في بلاد غريبة يزورها لأول مرّة ، وجديدٌ لأن حضارة هذه البلاد تختلف في مرتبة التمدن التي بلغتها عن حضارة الطهطاوي في كثير من مظاهرها وكثير من عواملها .

فكل ما وقع الطهطاوي عليه ، كان يلقى اهتمامه ، ويُحدث لديه ردة فعل كانت في الغالب تأتي إيجابية ، اذ انه وجد هذه المستحدثات نافعة ، ونذكر أن اهتمامه بها لم يقتصر على الجانب النفعي ، بل تعداه الى الجانب الجمالي الذي دخل ضمن مقاييسه للحكم على الامور .

ولقد استحسن الطهطاوي معظم جوانب الحياة الاجتماعية الغربية من مأكل وملبس ومسكن إلى أشياء أعمق من ذلك تتعلق بطباع الفرنسيين وبمكانة المرأة وسلوكها في المجتمع ، ولم يكن يستنكر إلا الأشياء التي تتعلق مباشرة بأخلاقيات المسلم ، وحتى هذه الأخلاقيات فانه كان يحاول أن يخفف من فداحة أمرها ، كمسألة السُكر مثلاً ، التي سنأتي على ذكرها بالتفصيل في ما يلي ، ولعلّه فعل ذلك لانفتاح مبكر في فكره ، ولعله حاول ان يجعل تلك الحضارة مقبولة لدى أبناء أمته فموّه ما استطاع أمر اختلاف أخلاقيتها عن تلك التي للإسلام ، ولعله أخيراً ، وبكل بساطة ، انبهر بتلك الحضارة فلم يشأ أن يبدد نشوته بسبب امور غير جوهرية ، كما تبدت له آنذاك ، أمور حاول ان يثبت أنها لا تتنافى مع الشرع او حاول حين كانت تتنافى ان يتجاهلها بحجة انه ليس مضطراً إلى تبنيها ، وأن للشرق أخلاقيته الخاصة ، وانه يحتاج إلى أشياء أخرى يتبناها ، غير الامور الأخلاقية .

وسنعرض فيما يلي لجوانب الحياة الاجتماعية الفرنسية التي أتى الطهطاوي على ذكرها في مؤلفاته ، وتشمل بصورة رئيسية : المأكل والملبس والمسكن وطباع الفرنسيين والمرأة .

١ - المآكل :

حظيت مسألة الغذاء ، وآداب المائدة باهتمام الطهطاوي ، ولقد جاء على ذكرها في عدة مواضع ، كما أفرد لها باباً خاصاً في تخليص الابريز أسماه : "في أغذية أهل باريس وفي عاداتهم في المآكل والمشارب" وفيه تكلم على انواع الاغذية وتحدث بالتفصيل على ترتيب المائدة ، ومراتب الطعام ، وأنواع الآنية ، ولقد أبدى إعجابه بهذا الترتيب في عدة مواضع ، وحين لم يكن إعجابه صريحاً ، كان وصفه وصياغته يدلان على استحسانه للأمور .

يقول في قوت أهل باريس :

"اعلم أن قوت أهل هذه المدينة هو الحنطة [...] يطحنونها في طواحين الهواء والماء ، ويخبزونها عند الفران ، فيباع الخبز في دكانه . وسائر الناس لها ترتيب يومي تشتريه من الخباز ، وعلة ذلك توفير الزمان والاقتصاد فيه ، لأن سائر الناس مشغولون في أشغال خاصة ، فصناعة العيش في البيوت تشغلهم ، ثم إن "المحتسب" يأمر الخبازين أن يكون عندهم كل يوم من العيش ما يكفي المدينة ، وفي الحقيقة لا يمكن فقد العيش ابداً بمدينة باريس ، بل ولا فقد غيره من أمور الأغذية "[1] .

ويذهب الطهطاوي الى أبعد من ذلك في قضية المآكل ؛ إلى أمور أدق تتعلق بترتيب المائدة ، بمراتبها وأصنافها وأوانيها وأثاثها .

يقول في وصف المائدة أثناء وجوده في الكرنتينا في مرسيليا :

"ولم نشعر في أول يوم إلا وقد حضر لنا أمور غريبة في غالبها ، وذلك أنهم أحضروا لنا عدة خدم فرنساوية لا نعرف لغاتهم ، ونحو مائة كرسي للجلوس عليها ، لأن هذه البلاد يستغربون جلوس الانسان على نحو سجادة مفروشة على الارض ، فضلاً عن الجلوس بالارض ، ثم مدّوا السفرة للفطور ، ثم جاءوا بطبليات عالية ثم رصّوها من الصحون

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١١٣.

البيضاء الشبيهة بالعجمية ، وجعلوا قدام كل صحن قدحاً من القزاز وسكينة وشوكة وملعقة ، وفي كل طبلية نحو قزازتين من الماء وإناء فيه ملح وآخر فيه فلفل ، ثم رصوا حوالي الطبلية كراسي لكل واحد كرسي ، ثم جاؤوا بالطبيخ فوضعوا في كل طبلية صحناً كبيراً أو صحنين ليغرف أحد أهل الطبلية ويقسم على الجميع ، فيعطي لكل إنسان في صحنه شيئاً يقطعه بالسكينة التي قدامه ثم يوصله إلى فمه بالشوكة لا بيده ، فلا يأكل الانسان بيده أصلاً ولا بشوكة غيره او سكينته أو يشرب من قدحه أبداً ، ويزعمون أن هذا أنظف وأسلم عاقبة "[١] .

وفي موضع آخر يقول :

"وعادة الفرنساوية الاكل في طباق كالطباق العجمية أو الصينية لا في آنية النحاس أبداً ، ويضعون على السفرة دائماً قدام كل إنسان شوكة وسكيناً وملعقة ، والشوكة والملعقة من الفضة ، ويرون أن من النظافة او الشلبنة أن لا يمس الانسان الشيء بيده ، وكل انسان له طبق قدامه ، بل وكل طعام له طبق ، وقدام الانسان قدح ، فيصب فيها ما يشربه من قزازة عظيمة موضوعة على السفرة ثم يشرب ، فلا يتعدى أحد على طبق الآخر [...] وبالجملة فآداب سفرتهم وترتيبها عظيم جداً "[٢] .

ولا ينسى الطهطاوي ان يتحدث على "مراتب الطعام" ، أي تقسيم الأصناف ضمن الوجبة الواحدة إلى عدة مراحل :

"وللطعام عندهم عدة مراتب معروفة ، وربما كثرت وتعددت كل مرتبة منها ، فأول افتتاح الطعام يكون بالشوربة ، ثم بعده باللحوم ، ثم بكل نوع من انواع الأطعمة ، كالخضراوات والفطورات[٣] ثم بالسلطة [...] ثم يختمون أكلهم بأكل الفواكه ، ثم بالشراب المخدر ، إلاّ انهم

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ٥٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١١٤ .

(٣) الفطورات.

يتعاطون منه القليل ، ثم بالشاي والقهوة ، وهذا الأمر مطرد للغني والفقير كل على حسب حاله ، ثم إن الإنسان كلما أكل طعاماً في صحنه غيّره وأخذ صحناً غير مستعمل ليأكل فيه طعاماً آخر"[١] .

فتقسيم الطعام الى مراحل لم يكن معروفاً في الشرق آنذاك ، وإذا حصل أن تعددت الأصناف على مائدة واحدة فإنها لم تكن تقسم بهذه الطريقة ، ولم يكن ثمة حدود فاصلة بين الصنف والآخر .

ومما يسترعي الانتباه ، قوله : "ثم بالشراب المخدر ، الا انهم يتعاطون منه القليل" ، فلقد تنبه الطهطاوي الى مسألة شرب الخمرة في الغرب ، ففصل بشكل قاطع بين مبدأ شرب الخمرة من جهة وبين السكر من جهة أخرى ، فتناول الخمر بكميات قليلة لا تُسكر أمر مقبول في الغرب ومقبول لدى الطهطاوي على ما يبدو ، فلا يعد شرب الخمرة عيباً في الغرب وإنما العيب هو في الافراط وفي السكر .

يقول الطهطاوي في هذا الموضوع :

"والغالب في الشراب عندهم النبيذ على الاكل بدل الماء ، وفي الغالب خصوصاً لأكابر الناس ، يشرب من النبيذ قدراً لا يسكر به ابداً ، فإن السكر عندهم من العيوب والرذائل . وبعد تمام الطعام ربما شربوا شيئاً يسيراً من "الغرقى"[٢] "[٣] .

وفي سياق تمييزه بين شرب الخمرة والسكر ، يقصر الطهطاوي السكر على حرافيش الخمارات ، ويعلق على كثرة عددها ، ومع ذلك يلاحظ أنه لا يقع من هؤلاء السكارى أضرار على الآخرين :

"وأما خماراتها فإنها لا تحصى ، فما من حارة الا وهي مشحونة بهذه الخمارات ، ولا يجتمع فيها إلا ارذال الناس وحرافيشهم مع

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة تخليص الابريز ، ص ٥٤ .

(٢) العَرَقيّ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١١٤ .

نسائهم ، ويكثرون الصياح وهم خارجون منها بقولهم ما معناه : الشراب ، الشراب ، ومع ذلك فلا يقع منهم في سكرهم أضرار أصلاً "[١] .

ويلحق بالمأكل حديث الطهطاوي على المطاعم والمقاهي التي شاهدها في باريس . ويبدو من خلال كلامه ، انه يعرف اشكالاً من المطاعم والمقاهي في مصر ، تختلف عن تلك التي وجدها في باريس .

يقول :

"ثم من الامور التي بها راحة للناس ، بمدينة باريس محال الاكل المسماة "الرسطراطور" أي "اللوكنجة" فإنها مستوفية لما يجده الانسان في بيته ، بل اعظم ، وقد يجد الانسان ما يطلبه حاضراً ، وفي هذه "الرسطراطور" غرف لطيفة متعددة مستوفية لآلات البيوت ، وربما يوجد فيها محال للنوم مفروشة بأعظم الفراش ، وكما يوجد في "الرسطراطور" انواع المآكل والمشارب يوجد فيها أنواع الفواكه والنقل "[٢] .

ويبلغ إعجاب الطهطاوي بهذه الأماكن ، ترتيبها وفخامتها ، حداً يدفعه الى تشبيه بعضها بالتحف .

يقول :

"وكان أول ما وقع عليه بصرنا من التحف قهوة عظيمة دخلناها فرأيناها عجيبة الشكل والترتيب ، والقهوجية امرأة جالسة على صفة عظيمة وقدامها دواة وريشة قائمة ، وفي قاعة بعيدة عن الناس محل لعمل القهوة ، وبين محل جلوس الناس ومحل القهوة صبيان القهوة ، ومحل الجلوس للناس مرصوص بالكراسي المكسوة بالمسجرات ، ومن الطاولات المصنوعة من الخشب الكابلي الجيد ، وكل طاولة مفروشة

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١١٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١١٤.

بحجر من الرخام الأسود او المنقوش ، وفي هذه القهوة يباع سائر انواع الشراب والفطورات ، فإذا طلب الانسان شيئاً طلبه الصبيان من القهوجية وهي تأمر بإحضاره له ، وتكتبه في دفاترها وتقطع به ورقة صغيرة فيها الثمن وتبعثها مع الصبي للطالب حين يريد الدفع [...] وبهذه القهوة أوراق الوقائع اليومية لأجل المطالعة فيها "[١] .

يصف الطهطاوي هذه "القهوة" بالتحفة وبـ"العجيبة الشكل والترتيب" ، فكل ما فيها يدهشه وهو جديد بالنسبة إليه : ترتيبها وأثاثها الفخم و"القهوجية" التي هي امرأة وقاعة إعداد القهوة البعيدة عن الناس و"صبيان" القهوة والبطاقة التي يدفع الزبون بموجبها الحساب والصحف التي تُقرأ فيها . فمفهوم المقهى في الغرب يختلف عما عهده الطهطاوي من مقاهي مصر .

وفي ذلك يقول :

"والقهاوي عندهم ليست مجمعاً للحرافيش ، بل هي مجمع لأرباب الحشمة ، إذ هي مزينة بالأمور العظيمة النفيسة التي لا تليق إلا بالغناء التام ، وأثمان ما فيها غالية جداً ، فلا يدخلها الا أهل الثروة، وأما الفقراء فإنهم يدخلون بعض قهاوي فقيرة او الخمارات والمحاشش"[٢] .

ويبدو أن المقاهي في مصر كانت مقصورة على "الحرافيش" أيام الطهطاوي بدليل قوله :"والقهاوي عندهم ليست مجمعاً للحرافيش" ، ولقد ميّز بين نوعين من المقاهي في باريس : مقاه فخمة لأرباب الحشمة الأغنياء ، وأخرى وضيعة للحرافيش ، وسنرى فيما بعد كيف ان هذه الفروق في المقاهي ليست إلا صدى للفروق الاجتماعية في هذه المدينة .

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ٥٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٥ .

٢ - الملبس :

ومن المظاهر الاجتماعية الغربية التي استحوذت على اهتمام الطهطاوي ، مسألة الملبس التي حدثنا عنها بكثير من الدقة والتفصيل، خصوصاً في ما يتعلق بزي المرأة من حلل وحلي وحيل تميّزت بها الفرنسيات ، وربما يعود ذلك إلى كون زي المرأة أكثر تعقيداً وتشعباً من زي الرجل ، وربما أمكننا تفسير ذلك بالفروق الشاسعة التي وجدها الطهطاوي بين طريقة المرأة الفرنسية في التزيي وطريقة المرأة المصرية .

ولقد أبدى الطهطاوي إعجابه بنظافة الفرنسيين ، وبساطة ملابسهم ، وبحريتهم في اختيار ما يشاؤون من الأزياء بما لا يخالف المألوف .

يقول :

"من المعروف عندنا أن غطاء رأس الافرنج البرنيطة ، وأن نعالهم في الاكثر الصرم السود أو "التاسومات" ، وأن لباسهم في الغالب هو الجوخ الأسود . أما الفرنساوية ، فإنهم في الغالب أيضاً على هذا الملبس، الا انهم لا يلزمون ملبساً خاصاً ، غير أن كل إنسان يلبس باختياره ما تأذن له العادة بلبسه"[1] .

وفي موضع آخر يقول :

"والغالب أن لبسهم ليس له زينة وإنما هو في غاية النظافة ، ومن العوائد العظيمة انتشار لبس القمصان والألبسة والصديريات تحت ملابسهم ، فإن الموسر يغيّر في الأسبوع عدة مرات ، وبهذا يستعينون على قطع عرق الواغش ، فلذلك لا أثر للقمل ونحوه الا عند من اشتد به الفقر "[2] .

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١١٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١١٧ .

يتوقف الطهطاوي عند مسألة النظافة مراراً ، فهي اول ما استرعى انتباهه في لباس الفرنسيين وأول ما لاحظه في البيوت وفي الطرق ، كما لاحظ ان الفقراء من الناس يفتقرون إلى هذه النظافة وأن الأوبئة متفشية بينهم .

في ما يختص بملابس النساء ، يقدم لنا الطهطاوي وصفاً دقيقاً لا بد انه تطلّب مشاهدة مطوّلة لعادات النساء في التزيي والتبرج . ولقد أبدى الطهطاوي اعجابه ببعض هذه العادات في اكثر من موضع . كقوله مثلاً :

"وملابس النساء ببلاد الفرنسيس لطيفة ، بها نوع من الخلاعة ، خصوصاً إذا تزينّ بأغلى ما عليهن"[1]. ولقد استظرف الطهطاوي هذه الملابس على ما بها من الخلاعة .

ويقول في موضع آخر :

"ومن عوائدهن في أيام الحر كشف الأشياء الظاهرية من البدن ، فيكشفن من الرأس الى ما فوق الثدي ، حتى انه يمكن أن يظهر ظهرهن، وفي ليالي الرقص يخلعن عن اذرعتهن ، وبالجملة ، فلا يُعد ذلك من الامور المخلّة عند أهل هذه البلاد ، ولكن لا يمكن لهم أبداً كشف شيء من الرجلين "[2].

ويبدو مما تقدم ان الطهطاوي لم يستنكر كشف الفرنسيات بعض اجزاء من الجسد بل اكتفى بالقول إن ذلك لا يُعد من الأمور المخلة عندهم.

وتنبه الطهطاوي إلى الحيل الجمالية التي تستخدمها الفرنسيات لابراز مفاتنهن .

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١١٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١١٨ .

يقول :

"ومن خصال النساء أن يشبكن بالحزام قضيباً من صفيح من البطن إلى آخر الصدر حتى يكون قوامهن دائماً معتدلاً لا اعوجاج فيه ، ولهن كثير من الحيل ، ومن خصالهن التي لا يمكن للإنسان أن لا يستحسنها منهن عدم ارخائهن الشعور كعادة نساء العرب ، فإن نساء الفرنسيس يجمعن الشعور في وسط رؤوسهن ويضعن فيه دائماً مشطاً أو نحوه" [١] .

وفي موضع آخر :

"ومن عوائدهن أن يحتزمن بحزام رفيع فوق أثوابهن حتى يظهر الخصر نحيفاً ، ويبرز الردف كثيفاً"[٢] .

ويدلنا هذا على بعض المقاييس الجمالية الجديدة التي وعاها الطهطاوي في باريس ، كاعتدال القامة ودقة الخصر وبروز الردف ...

٣ - المسكن :

استطاع الطهطاوي عبر إقامته في فرنسا أن يكوّن فكرة وافية وشاملة عن مساكنها ، بدءاً من هندستها الخارجية وانتهاء بالتحف التي تزيّنها من الداخل ، ولقد أعجب الطهطاوي باحكام بناء هذه المساكن وحسن هندستها وكثرة رياضها ورفيع ذوقها .

ومن الواضح الجلي ان الطهطاوي يغبط العمران الفرنسي ويبجل الحضارة الغربية التي من مظاهرها هذا العمران وهذه العمارة .

والامر الوحيد الذي لم يعجب الطهطاوي في عمارات فرنسا هو

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١١٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١١٧ .

مواد بنائها التي لا تحتوي على كثير من الرخام ، الا أن ذلك لا يعيبها على حد قوله وذلك لحسن هندستها وإحكام بنائها .

يقول :

"إن باريس ، التي هي قاعدة ملك الفرنسيس ، من اعظم بلاد الافرنج بناء وعمارة ، وإن كانت عماراتها غير جيدة المادة ، فهي جيدة الهندسة والصناعة ، على انه ربما يقال أيضاً : إن مادتها جيدة ، إلا انها ناقصة ، لقلة حجر الرخام فيها ، وبخلوها عن بعض اشياء اخر، وكيف لا، وأساس حيطانها من احجار النحاتة ، وكذلك الحيطان الخارجية ، وأما الداخلية فانها تتخذ من الخشب الجيد في الغالب وأما عواميدها فهي غالباً من النحاتة ، فقل أن كانت من الرخام "[1] .

وفي موضع آخر :

"ثم إن هذا البيت الذي كنا فيه للكرنتينا متسع جداً ، به القصور والحدائق ، والبناء المحكم ، فيه عرفنا كيفية إحكام أبنية هذه البلاد وإتقانها وامتلائها بالرياض والحياض "[2] .

ويشيد الطهطاوي بحسن هندسة هذه الابنية التي تُبنى على أسس علمية تسمح للشمس والنور والهواء بدخولها .

يقول :

"وبيوتهم دائماً مفرحة بسبب كثرة شبابيكهن الموضوعة بالهندسة وضعاً عظيماً يجلب النور والهواء داخل البيوت وخارجها وظرفات الشبابيك دائماً من القزاز حتى إذا اغلقت فإن النور لا يحجب أصلاً "[3].

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٠٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١١١ .

وتحدث الطهطاوي ، على ترتيب البيوت من الداخل ، بشيء من التفصيل وكثير من الاعجاب ، وتمنى في أكثر من موضع لو كانت الحال في بيوت مصر كما هي عليه في بيوت فرنسا ، سواء من حيث النظافة او من حيث الترتيب او من حيث الحس الجمالي والذوق الرفيع .

يقول في وصف الغرف :

"إن حيطان الغرفات والأرض من خشب [...] وهم يطلونه بالطلاء ، ثم يسترون الحيطان بورق منقوش نقشاً نظيفاً ، فهو أحسن من عادة تبييض الحيطان بالجير ، فإن الورق لا يعود منه شيء على من مسّ الجدار بخلاف الجير ، بل وهو أهون مصرفاً وأعظم منظراً وأسهل فعلاً ، خصوصاً في اوضاتهم المزينة بأنواع من الامتعة التي لا يمكن الافصاح عنها [...] وتحت أسرّتهم المكسوة بالمخيشات وبالمسجرات وغيرها سجادات عظيمة يطؤنها بالنعال ، وفي كل أوضة مدخنة للنار ، وهي على شكل صفة القلل ، مرخمة بجيد الرخام ، وفوقها ساعة "بشتختة" ، وحول الساعة في الجهتين آنية من تقليد الرخام الأبيض أو من البلور فيهما أزهار أو تقليد أزهار [...] وفي أوضة الشغل أيضاً قد توجد صور عجيبة وأشياء من غرائب ما كان عند القدماء على اختلافهم [...] فأين هذه الأوض بما احتوت عليه من اللطائف من أوضنا التي يحيي[1]فيها الانسان باعطاء شيق[2] الدخان من يد خادم في الغالب أسود اللون !"[3] .

ولقد أتيحت للطهطاوي فرصة زيارة قصر الملك للفرجة ، فأطّلع على "غرائب الأمور" كما يسميها ، ولا نعرف بالضبط ما هي هذه الامور العجيبة التي شاهدها ، ولكننا نعرف انها مما افتتن به الطهطاوي ، إذ يصفها بالعجيبة والغريبة وبمما ينبغي التفرج عليه ! والذي لفت انتباهه في هذه الامور ، من أثاث ورياش وتحف ، هو جودة صناعتها ،

---

(١) يُحيًا .

(٢) شُبُق .

(٣) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٠٧ - ١٠٩ .

والتفنن فيها لا نفاستها . وهذا مبدأ عام عند الفرنسيين لمسه الطهطاوي في جميع امورهم ، فالعبرة عندهم وعند ملوكهم وأمرائهم هي في دقة الصناعة ورفعة الذوق أكثر منها في الفخامة والتفاخر .

يقول :

"ومن العوائد التي لا بأس بها أن قصر ملك فرانسا وقصور أقاربه تنفتح حين خروج السلطان وأقاربه كل سنة إلى الإقامة في الخلاء مدة أشهر ، فيدخل سائر الناس للفرجة على بيت الملك وأقاربه ، فيرون اثاث البيت وسائر الأشياء الغريبة [...] وقد دخلت ذلك عدة مرّات فرأيته من الأمور العجيبة التي ينبغي التفرج عليها ، وفيه كثير من الصور [...] وكل الأشياء الغريبة ، وأغلب الأشياء الموجودة في حريم السلطنة مستحسنة من جملة جودة صناعتها لانفاستها بالمادة ، مثلاً سائر الفراش كالكراسي والاسرة ، حتى كراسي المملكة ، مشغولة شغلاً عظيماً بالقصب المخيش ومطلية بالذهب ، إلا أنه لا يوجد بها كثير من الأحجار الكريمة كما يوجد ببلادنا ببيوت الامراء الكبار بكثرة ، فمبنى أمور الفرنساوية في جميع امورهم على التجمل لا على الزينة وإظهار الغنى والتفاخر "[١] .

ومما استحسنه الطهطاوي في مساكن الفرنسيين ، العناية بنظافتها ، ولقد أتى على ذكر نظافة "الافرنج" في عدة مسائل وعدة مواضع ، لذلك فضلنا ان نفرد لموضوع النظافة مقطعاً خاصاً في باب "طباع الفرنسيين" .

٤ - طباع الفرنسيين :

أقام الطهطاوي في باريس خمس سنوات تمكن خلالها من مشاهدة الفرنسيين عن كثب ومن معايشتهم في تفاصيل الحياة اليومية ، مما اتاح له معرفة دقيقة بطبائعهم وميولهم ، خصوصاً في ما يتعلق بالخصال النفسية ، أو الفطرة التي يشترك فيها أبناء المجتمع الواحد .

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١١٠ .

- أ - الاهتمام بالنظافة والعناية بصحة الأبدان :

ركز الطهطاوي في مواضع عديدة من كتابه تخليص الابريز على نظافة الفرنسيين خصوصاً ونظافة الافرنج عموماً ، في كثير من الامور، كالمأكل والملبس والمسكن والشوارع ووسائل النقل ... وتحتل مسألة النظافة والعناية بصحة الأبدان حيزاً هاماً من تفكير الطهطاوي ، فلقد وعى ان النظافة هي اكثر من عادة مستحسنة ، هي مظهر حضاري وأحد مظاهر التمدن ، لذلك يقرن الطهطاوي حديثه على النظافة في الغرب بالحديث على النظافة في مصر ، او على الاصح على فقدان النظافة في مصر ، فيصب غضبه تارة على القبط لما يتصفون به من الوساخة بين نصارى العالم عموماً وبالمقارنة مع نصارى الغرب خصوصاً ، وعلى مصر الحديثة طوراً متذكراً عزّها الغابر يوم كان أهلها من أنظف الأمم .

يقول :

"ومما ينبغي أن يمدح به الفرنساوية نظافة بيوتهن من سائر الأوساخ ، وإن كانت بالنسبة لبيوت أهل الفلمنك كلاشيء ، فإن أهل الفلمنك أشد جميع الأمم نظافة ظاهرية ، كما أن أهل مصر في قديم الزمان كانوا أيضاً أعظم أهل الدنيا نظافة [...] وكما ان باريز نظيفة فهي خلية أيضاً من السميات ، بل ومن الحشرات ، فلا يُسمع بأن إنساناً فيها لدعته عقرب أبداً ، وتعهد الفرنساوية تنظيف بيوتهم وملابسهم أمر عجيب "(١) .

ولقد لاحظ الطهطاوي تمسك "الافرنج" بالنظافة حتى ولو كانوا على ظهر مركب في عرض البحر ، وهذا ما شاهده اثناء سفره إلى مرسيليا :

"ومما يستحسن في طباع الافرنج ، دون من عداهم من النصارى ، حب النظافة الظاهرية ، فإن جميع ما ابتلى الله سبحانه وتعالى به قبطة مصر من الوخم والوسخ أعطاه للإفرنج من النظافة ، ولو على ظهر البحر ، فإن أهل المركب التي كنا فيها يحافظون على تنظيفها

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١١٠، ١١١.

وإذهاب الوسخ ما أمكن ، حتى أنهم يغسلون مقعدها كل يوم من الأيام ، ويكنسونها في صف النوم كل نحو يومين ، وينفضون الفراش وغيره ، ويشممونها رائحة الهواء ، ويزيلون اوخامها ، مع ان النظافة من الايمان ، وليس عندهم منه مثقال ذرة ! ومع ما عند الفرنساوية من النظافة الغريبة بالنسبة لبلادنا ، فإنهم لا يعدّون أنفسهم من الأمم كثيرة الاعتناء بالنظافة "[١] .

ويبدو مما تقدم ، ان الطهطاوي قد أفاق على أمر مشكل وعلى معادلة معكوسة : فالغرب الملحد يتمتع بالنظافة التي هي من الايمان ، والشرق المتدين عار عنها ، وهذه المسألة ، مسألة تمدن الغرب وتمتعه بقيم إسلامية دون أن يكون مسلماً أو متديناً ، سيكون لها أثر كبير في صياغة فكر الطهطاوي وفي نظرته الى الغرب . ونحن نقع على معادلة مشابهة لدى حديثه على الحمامات العامة في باريس ، خصوصاً حينما يقارنها بما يعرفه من حمامات مصر .

يقول :

"والحمامات في باريس متنوعة ، وفي الحقيقة هي أنظف من حمامات مصر ، غير ان حمامات مصر أنفع منها وأتقن وأحسن في الجملة ، وذلك ان الحمام في مدينة باريس عدة خلوات ، في كل خلوة مغطس من نحاس يسع الانسان فقط ، وفي بعض الخلوات مغطسان ، وليس عندهم مغطس عام كما في مصر ، ولكن هذه العادة أسلم بالنسبة للعورة ، فإنه لا طريقة ان يطّلع انسان على عورة آخر ، حتى أن الخلوة التي فيها مغطسان بين كل مغطس ستارة تمنع ان ينظر الانسان صاحبه "[٢]. فالحمامات العامة في باريس تراعي الناحية الشرعية في مسألة ستر العورة أكثر من الحمامات العامة في مصر .

ومما استرعى انتباه الطهطاوي ونال إعجابه عناية الفرنسيين بصحة أبدانهم ، من رياضة ، وتمارين ، وحمامات من شأنها أن تمد الجسد بالصحة والنشاط ، ويجد الطهطاوي أن العناية بصحة الجسد

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ٤٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٧ .

وترويضه هي من دواعي الحكمة ، ولما كان الغرب معقل الحكمة برأيه ، اشتدت عناية اهله بهذا الامر .

يقول :

"لما كان من ضروريات الحكمة الاعتناء بحفظ صحة الابدان ، وكان الافرنج أحكم الأمم ، كثر اعتناؤهم بهذا الفن وبتكميل آلاته ووسائطه ، وكانوا أشد الناس مسارعة لما فيه نفع للبدن كالحمامات ، والحمام البارده المياه ، وترييض الجسم وتعويده على الامور الشاقة ، كالعوم وركوب الخيل والألعاب التي يخف بها البدن "[١] .

كذلك يقول :

"ومن أمور الرياضات النافعة لصحة البدن مدارس يتعلم فيها علم السباحة ، وهي ثلاثة مكاتب على نهر السين ، ومنها مدارس لتخفيف البدن وجعله قابلاً للأشياء العجيبة كالبهلوانية والمصارعة ونحو ذلك "[٢] .

- ب - حب العمل ورذل الكسل :

لاحظ الطهطاوي في الفرنسيين حبهم للعمل ورذلهم للكسل والبطالة ، وأشاد بدأبهم وهمتهم التي لا تعرف الكلل ، فالعمل عندهم عماد الحياة وهو مبدأ لتصنيف الناس ؛ فالعاطل عن العمل والمتسول والكسول لا مكان لهم في هذا المجتمع خصوصاً وانه ليس بإمكان أحدهم أن يعيل على الآخر ، حتى ولو كان ذلك بإمكانه ، فإنه يرفض الاعالة على الغير من حيث المبدأ ، ولذلك تكثر في هذه البلاد ، كما لاحظ الطهطاوي المستوصفات والجمعيات الخيرية ، فأعمال الخير تصدر عن الدولة لا عن الفرد .

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٢٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٧ .

يقول الطهطاوي في حبهم للعمل :

"اعلم انه مركوز في أذهان هؤلاء الطوائف محبة المكسب ، والشغف به ، وصرف الهمة إليه بالكلية ، ومدح الهمة والحركة وذم الكسل والتواني ، حتى ان كلمة التوبيخ المستعملة عندهم على ألسنتهم عندهم في الذم هي لفظة "الكسل" و"التنبلة"، وسواء في محبة الأشغال العظيم والحقير ، ولو حصل من ذلك مشقة أو مخاطرة بالنفس "[١]، "فإنهم لا يكلون من الأشغال ، سواء الغني والفقير ، فكأن لسان حالهم يقول : إن الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما!"[٢] .

ومن مستتبعات المجتمعات الصناعية ، التي دأبها العمل الدائم والتي لا مكان فيها لمن يحيا على الهامش ، أن الانسان إذا توقف عن العمل لسبب ما طرأ عليه ، اضطر الى طلب العون من الغير الذي يرفض المساعدة ، في تلك البلاد ، من حيث المبدأ . لذلك صارت الاعمال الخيرية إحدى مسؤوليات الدولة فهي تراقب المحتاجين والمعاقين والمشردين وتنظم أمورهم وتمنع أصحاب الحيل من المضي في انحلالهم .

يقول :

"إن غالب الناس ببلاد الافرنج ، وسائر البلاد التي تكثر الصناعة والنجامة فيها ، يعيشون من كسب أيديهم ، فإذا حصل للإنسان منهم مانع كمرض أو نحوه فقد معيشته ، واضطر إلى أن يعيش من غير كسب يده ، كان يتكفف الناس أو نحو ذلك ، فشرعت المارستانات المعّدة لفعل الخير ، حتى ان الانسان لا يسأل ما في أيدي الناس . وكلما كثرت صنائع ببلدة وكثر كسبها كثرت أهليها فاحتاجت الى مارستانات أكثر من غيرها .

ومعلوم ان مدينة باريس من أعمر المدن ، وأكثرها صناعة ونجامة،

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٤٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٦ .

فلذلك كثرت مارستاناتها ، ومواضعها المصنوعة لفعل الخير "[١] .

ويضيف الطهطاوي قائلاً :

"ان البلاد المتحضرة يقل كرمها ، وأيضاً يرون أن إعطاء القادر على الشغل شيئاً فيه إعانة له على عدم التكسب "[٢].

ويقول في موضع آخر :

"إن فعل الخير بمدينة باريس أكثر منه في غيرها بالنسبة للجملة أو للمملكة لا لكل واحد على حدته ، فإنه قد يشاهد في طرقها أن بعض الناس الذين يذهبون الى المارستانات الموقوفة ونحوها يقع في وسط الطريق من الجوع وربما تراهم ينهرون السائل ويردونه خائباً زاعمين أنه لا ينبغي السؤال أبداً ، لأنه إذا كان السائل قادراً على الشغل فلا حاجة له الى السؤال ، وإن كان عاجزاً عنه فعليه بالمارستانات ونحوها، ولأن السائلين عندهم أصحاب حِيَل في تحصيل الأموال "[٣] .

- ج - حب التغيير والتجديد والتقلب :

تمكن الطهطاوي من استجلاء امر هام يتعلق بطباع الفرنسيين. وهو حبهم للتغيير والتجديد ، ولقد رأى ان الفرنسي والغربي بشكل عام ، مولع بالجديد وبالاسفار وبالتغيير للتغيير ، ولا ندري إذا كان الطهطاوي قد وعى ان هذه الخاصة هي إحدى خصائص المجتمعات الصناعية ، أم أنه اعتبرها شيئاً من طباع الفرنسيين المفطورين عليها بصرف النظر عن علاقتها بالاحوال الاقتصادية - الاجتماعية - التاريخية .

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٤٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٤٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٤٧ .

يقول :

"ومن طباعهم أيضاً الطيشان والتلون ، فينتقل الإنسان منهم من الفرح إلى الحزن ، وبالعكس ، من الجد إلى الهزل وبالعكس ، حتى أن الانسان قد يرتكب في يوم واحد جملة أمور متضادة ، وهذا كله في الامور الغير المهمة "[١] .

وفي موضع آخر :

"ومن طباع الفرنساوية التطلع والتولع بسائر الأشياء الجديدة ، وحب التغيير والتبديل في سائر الامور "[٢] . حتى ان الانسان يحتاج في عمله ، سواء أكان علماً أم حرفة أم فناً أن يضيف شيئاً جديداً يُعرف به.

يقول :

"ليسوا [أي أهل باريس] أسراء التقليد أصلاً ، بل يحبون دائماً معرفة أصل الشيء ، والاستدلال عليه [...] وكل صاحب فن من الفنون يجب ان يتبدع في فنه شيئاً لم يسبق به او يكمل ما ابتدعه غيره "[٣] .

ويلحق بحب الفرنسيين للتغيير والتجديد ، ولعهم بالاسفار وبمعاشرة الاغراب ، بدافع من فضولهم وحبهم للتطلع ومعرفة اخبار البلاد من حولهم واحوالها .

يقول :

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ٧٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٧٥ .

"ومع كثرة ميلهم الى اوطانهم يحبون الاسفار ، فقد يمكثون السنين العديدة أو المدة المديدة طوافين بين المشرق والمغرب"[١] .

وكذلك قوله :

"ومن الناس من يسافر في بعض بلاد فرانسا او ما جاورها من البلاد ليستنشق رائحة البلاد الغريبة ، ويطلع على البلاد ، ويعرف عوائد أهلها ، خصوصاً في مدة من السنة تسمى عندهم مدة التعطيل او مدة الفراغ ، يعني البطالة "[٢] .

وقوله في موضع آخر :

"ومن خصالهم محبة الغرباء والميل الى معاشرتهم ، خصوصاً إذا كان الغريب متجملاً بالثياب النفيسة ، وإنما يحملهم على ذلك الرغبة والتشوق الى السؤال عن احوال البلاد وعوائد أهلها ليظفروا بمقصدهم في الحضر والسفر "[٣] .

- د - اللهو واتباع الشهوات :

ومما يتعلق بطباع الفرنسيين وسلوكهم ، حبهم للهو واللعب واتباعهم الشهوات وولعهم بالامور الدنيوية لانقطاعهم عن أمور العبادات . ولم يتوقف الطهطاوي طويلاً عند هذا الموضوع ، واكتفى بإشارات سريعة تعكس إعجابه بالفرنسيين أكثر من شجبه لتصرفاتهم، وإلا لأطال القول في هذا المجال ، خصوصاً في ما يتعلق بأمور "شيطانية" كما يسميها ، أمور لا توافق عليها الشريعة وتذب عنها سائر الأديان .

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ٧٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١١٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٧٦ .

يقول :

"ومن خصالهم أيضاً صرف الأموال في حظوظ النفس والشهوات الشيطانية واللهو واللعب ، فانهم مسرفون غاية السرف "[١] .

وفي موضع آخر :

"اعلم ان هؤلاء الخلق حيث انهم بعد اشغالهم المعتادة المعاشية لا شغل لهم بأمور الطاعات ، فانهم يقضون حياتهم في الامور الدنيوية واللهو واللعب ويتفننون في ذلك تفنناً عجيباً "[٢] .

- هـ - الحرية والمروءة والشرف :

جاء كلام الطهطاوي على الحرية والمروءة والشرف والأمانة عند الفرنسيين مقروناً بكلامه على هذه الفضائل عند العرب ، ولا ندري هل فعل الطهطاوي ذلك لاشتهار العرب بهذه الصفات بين سائر الامم ، أم لأنه رأى في ذلك إعلاء من شأن الفرنسيين لتمتعهم ببعض سمات عربية أصيلة ، أم لانه ، على العكس من ذلك ، رأى في هذه المقارنة إعلاء من شأن العرب لتمتعهم ، في ما حضر او في ما مضى ، بما تتمتع به الأمم المتحضرة .

ولقد أشاد الطهطاوي بمعظم هذه الصفات ، اللهم إلا صفة البخل ، واحتج في ذلك بأن الكرم مقصور على العرب .

يقول :

"ظهر لي بعد التأمل في آداب الفرنساوية وأحوالهم السياسية أنهم أقرب شبهاً بالعرب منهم للترك ولغيرهم من الأجناس ، وأقوى

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ٧٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١١٩ .

مظنة العرب بأمور كالعرض ، والحرية ، والافتخار ، ويسمون العرض شرفاً ، ويُقسمون به عند المهمات ، وإذا عاهدوا عاهدوا عليه ، ووفوا بعهودهم ، ولا شك أن العرض عند العرب العرباء أهم صفات الانسان "[١] .

وفي موضع آخر يقول :

"ومن طباعهم الغالبة وفاء الوعد ، وعدم الغدر ، وقلة الخيانة [...] ومن طباعهم الغالبة : الصدق ، ويعتنون كثيراً بالمروءة الانسانية "[٢] .

ويتحدث الطهطاوي على العفة وعزة النفس عند الفرنسيين ، فيشبهها بما كان عند العرب أيام عزهم ، أي قبل أن تتقلب عليهم الأحوال وتحوجهم إلى السؤال .

يقول :

"فمادة العرض التي تشبه الفرنساوية فيها العرب هو اعتبار المروءة وصدق المقال ، وغير ذلك من صفات الكمال ، ويدخل في العرض ايضاً العفاف ، فإنهم تقل فيهم دناءة النفس ، وهذه الصفة من الصفات الموجودة عند العرب ، والمركوزة في طباعهم الشريفة ، وإن كانت الآن قد تلاشت فيهم واضمحلت فإنما هو لكونهم قاسوا مشاق الظلم ونكبات الدهر وأحوجهم الحال الى التذلل والسؤال ، ومع ذلك فقد بقي منهم من هو على أصل الفطرة العربية ، عفيف النفس علي الهمة"[٣] .

ومما يتمتع به الفرنسيون من سمات عرفها العرب يوماً : الحرية.

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ٢٥٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

يقول :

"وأما الحرية التي تتطلبها الافرنج دائماً فكانت أيضاً من طباع العرب في قديم الزمان "(١) .

ومما استحسنه الطهطاوي في طباع الفرنسيين التي يتشابهون بها مع العرب ، عدم حبهم للغلمان ، حتى ان الفرنسيين فاقوا العرب استقامة في هذا المجال ، فهم لا يتغزلون بالغلمان في أشعارهم ، وإذا حصل ان وقعوا على هذا النوع من الغزل في الكتب العربية ، أبوا إلا أن يحرّفوه ويعدّلوا فيه ، لأن ذلك يعتبر عندهم من فساد الاخلاق .

يقول :

"ومن الامور المستحسنة في طباعهم ، الشبيهة حقيقة بطباع العرب ، عدم ميلهم الى حب الأحداث والتشبب فيهم أصلاً ، فهذا أمر منسي الذكر عندهم ، تأباه طبيعتهم وأخلاقهم ، ومن محاسن لسانهم وأشعارهم انها تأبى تغزل الجنس في جنسه ، فلا يحسن في اللغة الفرنساوية قول الرجل عشقت غلاماً ، فإن هذا يكون من الكلام المنبوذ ، المشكل ، فلذلك إذا ترجم احدهم كتاباً من كتبنا يقلب الكلام الى وجه آخر ، فيقول في ترجمته تلك الجملة : عشقت غلامة ، أو ذاتاً، يتخلص من ذلك . فانهم يرون هذا من فساد الاخلاق ، والحق معهم"(٢) .

كما استحسن الطهطاوي في الفرنسيين ، عادة شكران النعمة ، ولقد رأى أنهم يشتركون بها مع العرب ومع غيرهم من الأمم :

"ومن الصفات التي يقبح وصف الانسان بها عندهم : كفر النعم ، مثل غيرهم ، فيرون أن شكرهم المنعم واجب ، وأظن أن جميع

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ٢٥٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٨ .

الأمم ترى ذلك "[١] .

ومما عابه الطهطاوي على الفرنسيين ، وذكره في عدة مواضع ، ميلهم الى البخل ، وهو مما لا يشتركون فيه مع العرب المشهورين بالكرم.

يقول :

"وهم في الحقيقة أقرب للبخل من الكرم [...] وفي الحقيقة أصل السبب : هو أن الكرم في العرب "[٢] .

٥ - المرأة :

رأى الطهطاوي في الغرب امرأة تختلف عن تلك التي عرفها في مصر ، وأفاق على مفهوم جديد للمرأة لم يعرفه من قبل ، فهي كيان قائم في حد ذاته ، كائن مفكر فاعل حر . فالمرأة لم تعد سلعة او متعة او لوحة تنتظر مبادرة من الرجل وتكتفي بأن تشاهد ، بل هي تبادر وتدرس وتعمل وتقرر مصيرها على قدم المساواة بالرجل .

يقول الطهطاوي :

"وقد اجتهد الأوروباويون ، الذين بلادهم الآن هي أقوى البلاد ،في ان يربوا بناتهم كتربية الأولاد ، وكانت عادة الفرنساوية قديماً ان يربوا بناتهم في اديار الراهبات ، ويمكثن فيها الى حد تأهلهن للزواج"[٣] .

وفي موضع آخر يقول :

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ٧٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٦ .

(٣) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، المرشد الأمين ، ص ٢٩٤ .

"إن النساء أيضاً متولعات بحب المعارف والوقوف على أسرار الكائنات والبحث عنها ، أو ليس أنه قد يأتي منهن من بلاد الافرنج الى مصر ليرين غرائبها من الاهرام والبرابي وغيرها ، فهن كالرجال في جميع الامور "(١) .

ويقول في المرأة الفرنسية عند الحديث على التأليف والتصنيف وفي ضوء مساواتها بالرجل :

"وسواء في ذلك الذكور والإناث ، فإن للنساء تآليف عظيمة ، ومنهن مترجمات للكتب من لغة الى أخرى مع حسن العبارات وسبكها وجودتها ، ومنهن من يتمثل بإنشائها ومراسلاتها المستغربة . ومن هنا يظهر لك إن قول بعض أرباب الامثال : جمال المرء عقله ، وجمال المرأة لسانها ، لا يليق بتلك البلاد ، فإنه يسأل فيها عن عقل المرأة وقريحتها وفهمها وعن معرفتها "(٢) .

ولقد أفاق الطهطاوي على قضية المرأة العاملة ، حتى أن بعض المهن في باريس تكاد تقتصر على النساء .

يقول :

"والعادة [...] أن البيع والشراء بالأصالة للنساء ، وأما الأشغال فهي للرجال "(٣) .

ولم تكتف المرأة الغربية التي عرفها الطهطاوي بالمساواة مع الرجل ، بل دأبت حتى بلغت المكانة الأولى في المجتمع ، وحققت الأفضلية على الرجل في كل الشؤون الاجتماعية .

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١١٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٥٥ .

يقول :

"ثم ان جميع هذه التحف يكمل الأنس بها بحضور سيدة البيت ، أي زوجة صاحبه ، التي تحي [كذا] الضيوف أصالة ، وزوجها يحييهم بالتبعية "[١] . فالزوجة إذاً تحيي الضيوف أولاً ثم يليها الزوج . وكذلك قوله في وصف الحفلات الراقصة :

"والغالب ان الجلوس للنساء ، ولا يجلس أحد من الرجال إلا إذا اكتفت النساء ، وإذا دخلت امرأة على أهل المجلس ولم يكن كرسي خالياً قام لها رجل وأجلسها، ولا تقوم لها امرأة لتجلسها ، فالانثى دائماً في المجالس معظمة أكثر من الرجل ، ثم إن الانسان إذا دخل بيت صاحبه فإنه يجب عليه أن يحيي صاحبة البيت قبل صاحبه ولو كبر مقامه ما أمكن ، فدرجته بعد زوجته أو نساء البيت "[٢] .

ولقد تطرق الطهطاوي ، إلى مسألة سفور المرأة الفرنسية وكشفها أجزاء من جسدها ، وهو يرى أن سفورها أو كشفها أجزاء من جسدها ليس دلالة من دلالات التفلت الاخلاقي أو عاملاً مشجعاً عليه وإنما مرد التفلت إلى الخطأ في التربية .

يقول :

"وعادة نساء هذه البلاد كشف الوجه والرأس والنحر وما تحته ، والقفا وما تحته واليدين إلى قرب المنكبين"[٣] .

كذلك قوله :

"وحيث أن كثيراً ما يقع السؤال من جميع الناس عن حالة النساء

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٠٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٥٥ .

عند الافرنج كشفنا عن حالهن الغطاء ، وملخص ذلك ايضاً أن وقوع اللخبطة بالنسبة لعفة النساء لا يأتي عن كشفهن أو سترهن ، بل منشأ ذلك التربية الجيدة والخسيسة ، والتعود على محبة واحد دون غيره ، وعدم التشريك في المحبة "(١) .

هذا الموقف المحايد من كشف المرأة لاجزاء من جسدها ، لم يبقِ الطهطاوي عليه حين تحدث على الانحلال الأخلاقي وعلى السلوك المتفلت عند عدد كبير من النساء الفرنسيات ؛ فلقد عبر بالقول الصريح عن استيائه وعن شجبه لهذا السلوك ، ولمسألة اعتبار الزنا في المجتمع الغربي عيباً لا ذنباً ، ولتساهل الرجال مع النساء في هذا الموضوع .

يقول :

"ومن خصالهم الرديئة : قلة عفاف كثير من نسائهم [...] وعدم غيرة رجالهم فيما يكون عند الاسلام من الغيرة ، ومما قاله بعض أهل المجون الفرنساوية : لا تغتر بأباء امرأة إذا سألتها قضاء الوطر ، ولا تستدل بذلك على عفافها ، ولكن على كثرة تجربتها ! انتهى . كيف ، والزنا عندهم من العيوب والرذائل ، لا من الذنوب الأوائل ، خصوصاً في غير حق المتزوج "(٢) .

ويقول في تساهل الرجال وعدم غيرتهم على نسائهم :

"ولا يظن الافرنج بنسائهم ظناً سيئاً أصلاً ، مع أن هفواتهن كثيرة معهم ، فإن الانسان منهم ، ولو من أعيانهم ، قد يثبت له فجور زوجته فيهجرها بالكلية ، وينفصل عنها مدة العمر ، فلا يعتبر الآخرون بذلك، مع انه ينبغي الاحتراس منهن "(٣) .

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ٢٥٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٨، ٧٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٧٨ .

ويفصل الطهطاوي كلياً بين الانحلال الاخلاقي والخيانة من جهة وبين علاقة المرأة بالرجل من جهة اخرى ، ولقد حدثنا على أنواع عدة من العلاقات ، وعلى اختلاط المرأة بالرجل في الحياة العملية والاجتماعية ، فلم يستنكر مثلاً توليد المرأة على يد طبيب رجل ، او اختلاطها به في المراقص والمنتزهات أو في اماكن العمل .

يقول في توليد المرأة على يد طبيب :

"وفي باريس أيضاً حكماء لتوليد النساء فإن العادة أيضاً في باريس أن المرأة يولدها رجل حكيم ، عارف بأمور الولادة "(١) .

ويقول في اختلاط المرأة بالرجل في المجتمع :

"ونساء الفرنساوية بارعات الجمال واللطافة حسان المسايرة والملاطفة [...] يختلطن مع الرجال في المنتزهات ، وربما حدث التعارف بينهن وبين بعض الرجال في تلك الحال ، سواء الاحرار وغيرهن ، خصوصاً يوم الأحد الذي هو عيد النصارى ويوم بطالتهم "(٢) .

وفي حديثه على الرقص والمراقص يقول :

"وكل انسان يعزم امرأة يرقص معها ، فإذا فرغ الرقص عزمها آخر للرقصة الثانية وهكذا ، وسواء كان يعرفها او لا ، وتفرح النساء بكثرة الراغبين في الرقص معهن [...] وكلما حسن خطاب الرجل مع النساء ومدحهن عد هذا من الأدب "(٣) .

نستخلص مما تقدم جملة أمور هي :

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٣٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

أولاً : إن الطهطاوي قد استحسن معظم جوانب الحياة الاجتماعية الفرنسية، ولقد عبر عن استحسانه هذا بطرق مختلفة :

فكان تارة يكتفي بعبارات موحية تدل على إعجابه ، كقوله مثلاً في الحديث على ترتيب المائدة :" فلا يتعدى أحد على طبق الآخر" فوصفه لتناول أحدهم الطعام من طبق الآخر بالتعدي يدل على استحسانه لعادة أكل كل شخص منفرداً في طبق .

وكان طوراً يصف ما يراه بالعجيب والغريب واللطيف كقوله أيضاً في الحديث على تريب المائدة :" فآداب سفرتهم وترتيبها عظيم جداً ."

وأحياناً كان الاعجاب يذهب به الى حد الدعوة الصريحة إلى تبني بعض العادات والمنجزات الغربية ، كقوله في وصف المسكن:" ثم يسترون الحيطان بورق منقوش نقشاً نظيفاً ، فهو أحسن من عادة تبييض الحيطان بالجير [... الى أن يقول] فأين هذه الاوض بما احتوت عليه من اللطائف من اوضنا التي يحيّا فيها الانسان بإعطاء شُبُق الدخان من يد خادم في الغالب اسود اللون" . فنحن لا نتوقع موقفاً كهذا من شيخ أزهري من المفترض ان يتعالى عن العنصريات ، سيما وأن الشعب المصري هو أحد شعوب أفريقيا باعتراف الطهطاوي (١) .

ولعله بالامكان تفسير هذا الموقف بحالة نفسية اعترت الطهطاوي ، إذ إننا نشعر عند وصفه للمساكن الفرنسية وروعتها، بلهجة تصاعدية بدأت تغبط الفرنسيين وانتهت بثورة على الوضع القائم في مصر ؛ فاللوحة الفرنسية مشرقة منيرة ، واللوحة المصرية قاتمة مدخّنة يكللّها خادم أسود اللون ؛ فهذه العبارة المتذمرة الحانقة تجسد حالة الطهطاوي النفسية بعد أن استفاض في وصف النظافة والترتيب والحس الجمالي المرهف في بيوت الفرنسيين .

(١) يقول الطهطاوي في مناهج الألباب ، الاعمال الكاملة ، ، ص ٥١١ :
"فمصرنا بأعلى منارها كوكب قسم أفريقيا ."

ثانياً : ان الطهطاوي قد وعى مسألة الفروقات الطبقية في المجتمع الغربي ولاحظ تأثير المستوى الاجتماعي على سلوك الفرد بدءاً بالعناية بالنظافة وانتهاء بنوع الامكنة التي يرتادها أبناء الطبقة الواحدة . ففي حديثه على نظافة ملابس الفرنسيين يقول:

"فإن الموسر يغيّر في الأسبوع عدة مرات ، وبهذا يستعينون على قطع عرق الواغش ، فلذلك لا أثر للقمل ونحوه الا عند من اشتد به الفقر ."

وفي سياق تمييزه بين شرب الخمرة والسكر يقصر الطهطاوي السكر على حرافيش الخمارات :

يقول :

"وأما خماراتها فانها لا تحصى [...] ولا يجتمع فيها الا ارذال الناس وحرافيشهم مع نسائهم" . وفي حديثه على المقاهي يقول انها ليست مجمعاً للحرافيش بل ملتقى لأرباب الحشمة وانها لا تليق إلا بالغنى التام" ، "وأما الفقراء فانهم يدخلون بعض قهاوي فقيرة او الخمارات والمحاشش" .

فلقد لاحظ الطهطاوي وجود هذه الفروقات الشاسعة بين الطبقات ، ولاحظ تأثير كل طبقة على سلوك ابنائها ، فكان دائماً يؤكد على اقتران الفقر بسوء السلوك وبتفشي الجهل والاوبئة، فيحملنا على الاعتقاد بأنه يعتبر ذلك نتيجة حتمية للفقر . كما تحدث الطهطاوي على تأثير الطبقة الاجتماعية أي المحيط الاجتماعي على سلوك المرأة :

"وقد جرب في بلاد فرنسا ان العفة تستولي على قلوب النساء المنسوبات الى الرتبة الوسطى من الناس دون نساء الأعيان والرعاع ، فنساء هاتين المرتبتين يقع عندهن الشبهة كثيراً "[1] .

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ٢٥٨ .

ثالثاً : إن الطهطاوي قد وعى في باريس بعض مظاهر المجتمعات الصناعية ، فتناول بعضها مدركاً انها احدى مظاهر المجتمعات الصناعية ، وتناول البعض الآخر من باب مختلف دون تفسيره كظاهرة من مظاهر هذه المجتمعات .

لقد لاحظ الطهطاوي مثلاً مسألة بيع الخبز في الدكان ، لأن الناس لا يجدون الوقت الكافي لاعداده في البيوت . كذلك يدلنا ما جاء به الطهطاوي بشأن حب الفرنسيين للعمل ، وبشأن المؤسسات الخيرية ، على فهم عميق وتحليل دقيق لتركيبة المجتمع الغربي الصناعي ، فكل ما ذكره بدءاً بمواظبة الفرنسيين على العمل وانتهاء بأن هذا المجتمع تقتصر فيه أعمال الخير او تكاد على مجهودات الدولة ، كل ذلك يشكل سلسلة مترابطة ، ليست الامور فيها إلا نتائج حتمية لمسبباتها ، وأسباباً مولّدة لما يليها : فالمجتمع الصناعي يحتاج الى قوى عاملة لا تعرف الكلل ، وإن من تهمزه نفسه بالتخاذل ويستسلم للكسل ترمي به هذه العجلة المجنونة خارج القطار ، فيصبح على الهامش ويتخلف عن الركب، ويطلب العون من غيره من الناس الا انهم لا يجيبونه الى طلبه، لأنهم خائفون ، خائفون من ان يصيبهم غداً ما أصابه هو اليوم ، ولأنهم إذا أجابوه الى طلبه ، شجعوه بذلك على المضي في كسله وتخاذله ، وأخيراً لأن البلاد الصناعية المتحضرة ، "يقل كرمها" على حد قول الطهطاوي . وبهذه العبارة ، يختصر الطهطاوي كل تركيبة المجتمع الصناعي .

ومن مظاهر المجتمعات الصناعية في الغرب ، حب التغيير والتجديد ، ولقد قلنا في ما تقدم اننا لا نعرف إذا كان الطهطاوي قد تنبّه الى ان هذه الخاصة هي إحدى خصائص المجتمعات الصناعية التي يبحث فيها الانسان عن الجديد ، عن شيء لا يعرفه يبدد ملله ، عن شيء لم يُستهلك بعد .

رابعاً : تنبّه الطهطاوي الى مسألة "تمتع الغرب الملحد بما يجب ان يتمتع به الشرق المتدين" ، ففي عدة مواضع يعبّر الطهطاوي عن استحسانه لبعض أمور في الغرب كان من المفترض ان تكون موجودة في الشرق الاسلامي لانها من صلب تعاليمه الدينية ،

ولأن الغرب الذي يتمتع بها وبنتائجها لا يعرف ذرة من الإيمان . على حد تعبيره . هذه الظاهرة واجهها الطهطاوي في مجالات عدة:

ففي حديثه على النظافة عند الفرنسيين يقول : " مع ان النظافة من الإيمان وليس عندهم منه مثقال ذرة ! ومع ما عند الفرنساوية من النظافة الغريبة بالنسبة لبلادنا ، فانهم لا يعدون أنفسهم من الأمم الكثيرة الاعتناء بالنظافة" ، فالغرب الملحد إذاً يتمتع بالنظافة التي هي من الايمان والشرق المتدين خال منها . وفي حديثه على الحمامات العامة في باريس ، يقول انها لا تحتوي على مغطس عام كما في مصر ويضيف "ولكن هذه العادة أسلم بالنسبة للعورة ، فإنه لا طريقة ان يطلع انسان على عورة آخر" . وهنا أيضاً تطالعنا قضية توافق مسلكية الغرب مع الشريعة الاسلامية رغم ان الغرب لا يقتضي بها ، ومخالفة مسلكية الشرق الاسلامي لها مع انها عماده وسنته التي من المفترض ان يقتضي بأحكامها . وفي حديثه على السُكر والغلمان ، نلاحظ أيضاً ان الطهطاوي كان يميل إلى تفضيل الموقف الغربي الذي بدا أكثر تمشياً مع الاخلاقيات الاسلامية . فهو يقول مثلاً ، ان الفرنسيين متشابهون مع العرب في عدم حبهم للأحداث غير انهم فاقوهم شهامة ، فأشعارهم تأبى تغزل الجنس في جنسه ، وإذا وقعوا على شيء من هذا الغزل في التراث العربي تخلصوا منه وحرفوا الكلام لأن ذلك عندهم "من فساد الأخلاق" .

وفي مسألة شرب الخمرة ايضاً ، فضّل الطهطاوي الموقف الغربي ، لجهة كيفية شرب الخمرة ، وذهنية شرب الخمرة ، فحين يقارن الطهطاوي الغرب بالشرق في مسألة شرب الخمرة يقول انهم في الغرب لا يقع منهم ضرر في شربهم وانهم لا يتغزلون بالخمر ، وليس عندهم خمريات في أدبهم كما هي الحال عند العرب . فإذا كانت الخمرة آفة متفشية ، فهي عند الغرب آفة "غذائية" وعند العرب آفة تراثية ثقافية .

كذلك الأمر بالنسبة الى حب الفرنسيين للعمل ورذلهم للكسل والبطالة ، فالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية والحكمة القديمة كلها تحض على العمل وتنهى عن الكسل والبطالة .

يقول :

"ومن كلام لقمان الحكيم الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما [...] وقد علمنا سبحانه وتعالى وجوه المكاسب والمنافع ، وألهمنا دقائق الفنون والصنائع ، حيث مدح السعي وذم البطالة بقوله تعالى : (وان ليس للإنسان الا ما سعى) [...] وقال الجنيد رحمه الله تعالى : اذا رأيت الفقير يطلب السماع فاعلم ان فيه بقية من البطالة ، والله لا يحب الرجل البطال "[1] .

فلقد أيقن الطهطاوي ان المجتمع الغربي يميل الى التقيّد بالشريعة بديهياً ، بواسطة ما تمليه عليه قاعدة التحسين والتقبيح العقليين . فاتباع الشريعة الاسلامية إذاً ليس شرطاً مطلقاً للنجاح في مجتمع ما ، وليس من شروط التمدن ، والشريعة ليست بالضرورة المبدأ الوحيد للإستحسان والتقبيح ، فلقد أوجد الغرب مقياساً عقلياً بشرياً للحكم على الأمور ، وتبيّن ان هذا المقياس على كونه بشرياً ، لا يتنافى مع الشريعة ، وفي الغالب ينص على ما تنص عليه .

يقول :

" والقانون الذي يمشي عليه الفرنساوية [...] هو القانون الذي ألفه لهم ملكهم المسمى لويز الثامن عشر [...] فلنذكره لك ، وإن كان غالب ما فيه ليس في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لتعرف كيف قد حكمت عقولهم بأن العدل والانصاف من اسباب تعمير الممالك وراحة العباد " .

وتجدر الاشارة هنا الى أننا لا نقول إن الطهطاوي دعا الى تجاهل الشريعة أو تبني مبدأ الاستحسان والتقبيح العقليين ولكنه فوجىء وأعجب بمبدأ جديد وفعال له فعالية الشريعة . والفرنسيون إذ تقيّدوا بهذا المبدأ الذي وضعته عقولهم ، بلغوا

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، المرشد الأمين ، ص ٣١٤ - ٣١٧ .

درجة متقدمة من التمدن والعمران بخلاف المسلمين الذين لا يتبعون الشريعة الاسلامية .

خامساً : إن الطهطاوي قد قيّم الفرنسيين على أساس مقاييسهم فكان يستحسن هذا الامر او ذاك او يرده ، بالرجوع الى مقاييس هي غربية اكثر منها شرقية او شرعية ، فكان يكره الأشياء بقدر ما كان الفرنسيون يكرهونها ، ولعله كان يحاول تقريب صورة الفرنسيين والغرب إلى ذهن المصريين باثبات ان الفرنسيين حين يتبعون مبدأ ما فانهم لا يخرجون عنه ، وأن ما يعتبره المصريون والمشرقيون تفلتاً وانحلالاً انما هو سلوك طبيعي في الغرب ، وأن الغربيين يشجبون ما يعتبرونه في حضارتهم انحلالاً وتفلتاً وخيانة .

وتجلى هذا الموقف واضحاً اكثر ما تجلى في مسألتي المرأة وشرب الخمرة كما عرضهما الطهطاوي .

لقد اعجب الطهطاوي بالمرأة الفرنسية ، ولقد استحسن جمالها ولباسها وبساطتها وجديتها ولم يستنكر الا سلوكها المتفلت في بعض الاحيان او في معظمها . وفي الواقع لقد استنكر الطهطاوي ما يستنكره الفرنسيون أنفسهم من انحلال أخلاقي وخيانة الزوج وعدم صون العرض وفي ما عدا ذلك وقف الطهطاوي موقفاً محايداً من كشف المرأة لجسدها مثلاً او سفورها أو احتكاكها بالرجل ، أو مس الرجل لها . ولا نعتقد أن الطهطاوي قد تبنى هذا الموقف من باب الموضوعية او الحياد للحياد ، لأنه لم يتوان عن إبداء شجبه وسخطه في ما يتعلق بسلوك المرأة الفرنسية ، لكنه حكم على الفرنسيين من خلال مقاييسهم .

يقول مثلاً في مسألة مس المرأة :

" فمس المرأة أيا ما كانت من الجهة العليا من البدن غير عيب عند هؤلاء النصارى "[1] .

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٢٣ .

فإذا كان مس المرأة لا يُعد عيباً في تلك البلاد ، فأهلها إذا آمنون من النقد .

كذلك الأمر بالنسبة الى سفور المرأة الغربية ، فهو يتحدث على كشفها لرأسها ببساطة ولا يعيب عليها ذلك بل يحتج بأن سفورها ليس سبباً من أسباب التفلت وإنما مرد التفلت الى التربية الرديئة ؛ وحين يتحدث الطهطاوي على تسريحة المرأة الفرنسية ، يعبر عن استحسانه لعدم ارخائها لشعرها مسدلاً كالمرأة المصرية . فسفور المرأة الغربية لا يعنيه بقدر ما تعنيه جديتها ، وترتيبها لشعرها في وسط رأسها .

وفي مسألة شرب الخمرة ، كان موقف الطهطاوي أيضاً متفهماً . ففي معرض حديثه على الخمرة أو " الشراب المخدر " كما يسميه . يقول :

" الا انهم يتعاطون منه القليل " .

فالطهطاوي كشيخ أزهري أو كمسلم مشرقي لم يستنكر شرب الخمرة وإنما يستنكر السكر الذي يستنكره الفرنسيون انفسهم .

يقول :

" والغالب في الشراب عندهم النبيذ على الاكل بدل الماء ، وفي الغالب خصوصاً لأكابر الناس ، يشرب من النبيذ قدراً لا يسكر به ابداً ، فإن السكر عندهم من العيوب والرذائل " .

فالطهطاوي لا يقف من شرب الخمرة موقفاً معادياً ، وهو حين يستنكر السكر فانه يفعل ذلك من باب اجتماعي سلوكي لا من باب شرعي . وبهذا ينتقل الطهطاوي من المقياس الديني الشرعي الذي يتخطى كل الحدود الجغرافية والسياسية ، الى مقياس بشري قومي أو محلي .فلا يحكم على صحة مسألة أو عدم صحتها انطلاقاً من فكره ومن حضارته بل انطلاقاً من فكر

الحضارة التي هو بصددها .

أعجب الطهطاوي إذا بمعظم ما شاهده من جوانب الحياة الاجتماعية الفرنسية . وكان أحياناً يدعو أبناء أمته الى تبني بعض هذه الجوانب ، ولكنه حذّر من التطرف في الاتجاهين :

لقد حذّر من رفض كل ما تأتي به الحضارة الغربية لمجرد كونه من انتاجها ، ما دام ذلك لا يتنافى مع الشرع .

يقول :

"ولا يستدل على قبح الأشياء المبتدعة بأنها ليست من آداب الاسلام وانها من آداب غيرهم ، فإن علة القبح في الامور المبتدعة غير ذلك ، فمن التعنت القول بأن علية كراهة الشيء أو بدعيته كونه أول ما صنع لفرعون وغيره من ملوك الاوائل ، فإن نحو هذا كثير من المآكل والمشارب والملابس والمساكن [...] فلا شك ان الافرنج الذين هم أول ما ظهر عندهم بعض أشياء مبتدعة ببلادهم مما ذكر يقبل كل شيء صدر عنهم ما دام مشتملاً على المنافع والشرع لا يأباه " [١] .

كما حذّر ، من جهة أخرى ، من تبني كل ما تنتجه الحضارة الغربية بغية التقليد ، لأن الهدف ليس تقليد الغرب في المطلق ، وانما الهدف هو تقليد الغرب في الامور الجوهرية التي من شأنها النهوض بالأمة .

يقول :

"فإن مستحسَن العرف والعادة لا يوجبه عقل أو شرع ، بدليل اختلاف ذلك باختلاف البلاد ، كالتجمل والزينة ، فإن لأهل الشرق زياً مألوفاً ولأهل الغرب زياً معروفاً غيره ، وكذلك يختلف العرف باختلاف

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، رسالة البدع المتقررة في الشيع المتبربرة ، ص ١٠٢ .

أجناس الطوائف [...] وربما توهّم البعض أن التزيي بزي البلاد الأجنبية ، المشهورة بالتمدن ، هو من المروءة الكاملة ، والسيرة الفاضلة ، فبادر بالامتياز بها عن الأكثرين بدون موجب، مع ان قيافة بلده لا تنقص عنها شيا ، وانما قصد بذلك الخروج عن قيافة وطنه [...] فالتمدن ليس في زينة الملابس بعرف مجهول متخيل استحسانه "[١] .

ومما يعيننا على فهم موقف الطهطاوي من جوانب الحياة الاجتماعية الغربية ما جاء به في المرشد الأمين في حديث عمّا هو بدعة في الاسلام .

يقول :

" وقد قسم ابن عبد السلام[٢] الحوادث الى الأحكام الخمسة ، فقال والبدعة : فعل ما لم يقع في عصر النبي ، صلى الله عليه وسلم ، [وبعد أن يورد عدة انواع من البدع يقول] وتكون البدعة مباحة كالتوسع في المآكل والمشرب والملابس الفاخرة [...] ومن البدع المباحة الاكل بالملاعق . وقد حضر الامام ابو يوسف ، صاحب الامام ابي حنيفة ، رضي الله عنهما ، مائدة الخليفة هارون الرشيد ، فطلب الملاعق ، فقال له أبو يوسف : يا أمير المؤمنين ، قد قال جدك ابن عباس ، رضي الله عنهما، في قوله تعالى : (ولقد كرمنا بني آدم) [٣] أي جعلنا لهم أصابع يأكلون بها ، ولم نجعلهم كالدواب تأكل بأفواهها ! فرد الخليفة الملاعق وأكل بأصابعه "[٤] .

ونستدل من ذلك على تشديد الطهطاوي على اتباع الغرب في الامور الجوهرية ، في ما ينهض بالأمة ، ومع أن الاكل بالملاعق بدعة مباحة، فانه من الممكن الاستغناء عنها طالما انها ليست أمراً جوهرياً.

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، مناهج الألباب ، ص ٢٦١ .

(٢) العز بن عبد السلام ، احد قضاة مصر المشهورين في العصر المملوكي .

(٣) الاسراء : ٧٠ ، المحقق .

(٤) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، المرشد الأمين ، ص ٧٣٢ .

وسنبيّن فيما بعد كيف ان الطهطاوي لم يكن صاحب موقف واحد على مدى تجربته مع الغرب وأن هذه المواقف التي تبدو لنا الآن معتدلة توفيقية في المرشد الأمين ومناهج الألباب اللذين كتبهما في مصر كهلاً لم تكن كذلك في تخليص الابريز أيام شبابه وإبان إقامته في العاصمة الفرنسية .

الخاتمة

درج عدد من الباحثين في فكر الطهطاوي وفي نظرته الى الغرب على القول بأن الطهطاوي كان صاحب موقف توفيقي بين الشرق والغرب او بين الحضارة الاسلامية والحضارة الغربية ، وأن الشرق والغرب قد التقيا في فكره وقلبه على وفاق .

من ذلك قول حسين فوزي النجار :

"فاستوى الشرق والغرب في قلبه وعقله على وفاق "(١) .

أو قول أنور لوقا :

"لقد سعى الطهطاوي الى تحقيق التوازن بين الموضوعية وبين المحافظة على التقاليد "(٢) .

ولكننا من خلال دراستنا لمؤلفات الطهطاوي ومن خلال الخوض في تفاصيل آرائه في المظاهر الحضارية الغربية التي استعرضناها ، وجدنا انه لم يكن صاحب موقف واحد من الحضارة الغربية . لقد كان للطهطاوي موقفان متباينان ومتناقضان أحياناً من الغرب : الأول غربي والثاني مشرقي إسلامي . ولو أردنا رسم الحدود التاريخية والجغرافية والفكرية لكل من الموقفين بشكل تقريبي ، لقلنا إن الطهطاوي كان غربياً في تخليص الابريز وكان مشرقياً إسلامياً في مناهج الألباب والمرشد الأمين وغيرهما من مؤلفاته التي أصدرها بعد عودته الى مصر ، أي انه كان في باريس غربياً دينه الاسلام ، وكان في مصر مسلماً مشرقياً يتحلى بانفتاح على الغرب الحديث .

---

(١) النجار ، رفاعة الطهطاوي ، رائد فكر وإمام نهضة ، ص ٤٩ .

(٢) Anouar Louca, Voyageurs et écrivains égyptiens en France au XIXe siècle, Didier, Paris, 1970, p. 65.

ولسنا نعلم على وجه التحديد ما هي الأسباب التي دعت الطهطاوي الى تغيير موقفه من الغرب بعد عودته من باريس وربما أمكننا تعليل ذلك بطائفة من الأسباب نذكر منها :

١ - تجربته مع تعسف الحكام المصريين وخصوصاً تجربة نفي الخديوي عباس له الى السودان سنة ١٨٥٠ بسبب أفكاره الغربية الجريئة(١) ، وتوقيف الخديوي سعيد له عن العمل سنة ١٨٦١ .

٢ - ردود فعل بعض شيوخ الازهر المحافظين الذين رأوا في أفكاره تهديداً للتيار الديني المحافظ .

٣ - ردود فعل فئات من الشعب المصري الذي بدا بعد عودة الطهطاوي من باريس رافضاً لكتابه تخليص الابريز ، ولدعوته الى تبني منجزات الحضارة الغربية . ونذكر هنا ما يقوله انور لوقا عن ردود فعل الشعب المصري على كتاب رفاعة :

"لقد أساء الشعب تحت تأثير الاحكام الدينية المسبقة فهم الكتاب [...] لقد انتشرت حول رحلة رفاعة الى باريس أسطورة منبثقة عن رؤية سطحية لفرنسا ملحدة آثمة "(٢) .

وفي موضع آخر يذكر لوقا حادثة ذكرها ادوارد وليم لاين في الـ Journal de Voyage جاء فيها : "ان رجلاً [...] جاء يشتري كتاب رفاعة تخليص الابريز من إحدى مكتبات القاهرة سائلاً عن محتوى هذا الكتاب ، فأجابه رجل كان جالساً أمام الدكان بأن الكاتب يتحدث فيه على رحلته من الاسكندرية الى مرسيليا وكيف استسلم لشرب الخمرة على ظهر المركب وكيف عوقب على ذلك بأن رُبط الى صاري السفينة وجُلد وكيف انه حين وصل الى بلاد الكفر والضلال اكل لحم الخنزير وراح يلهو مع الفرنسيات الجميلات اللواتي فقن المصريات بحسنهن

---

(١) راجع الاعمال الكاملة ، المقدمة .

(٢) Louca, Voyageurs et écrivains égyptiens en France, p. 68 , 69 .

وانه بعد ان هيأ لنفسه مكاناً بارزاً في الجحيم عاد الى مصر "(١) .

ولا بد أن تكون قد ترامت الى مسامع الطهطاوي مثل هذه الحوادث والأحاديث ولعله بعد ذلك وبعد تجربة نفيه الى السودان وصرفه من الخدمة وقد مال الى تبني موقف أكثر اعتدالاً وأكثر استناداً الى الاسلام والتراث ، فحاول ان يجعل الغرب شاهداً على الاسلام في مناهج الألباب والمرشد الأمين بعد أن كان يستشهد للغرب بالاسلام في تخليص الابريز .

ولقد وقعنا خلال بحثنا على جملة من الآراء التي كان الطهطاوي فيها غربياً بحتاً لا يردّه عن تأييده لهذا الغرب التعارض الواضح أحياناً مع ما تنص عليه الشريعة الاسلامية . فكثيراً ما نراه يستحسن عوائدهم رغم تعارضها الصريح مع أحكام الشريعة ، أو يعتذر عنهم بأن ما يقومون به لا يتعارض مع تقاليدهم المرعيّة من غير ان يشير الى مخالفتها للإسلام ، او يختصر القول في ما يتعلق بأخلاقيات الفرنسيين مما يتعارض مع أخلاقيات المسلم اختصاراً لافتاً ، ونعتقد ان اختصاره هذا دليل واضح وإن غير مباشر على انحيازه الى الموقف الغربي .

كما وقعنا خلال بحثنا على عدد من المواقف والآراء التي كان الطهطاوي فيها اسلامياً مشرقياً يعارض ما جاء به الطهطاوي الغربي في تخليص الابريز ويفتش في تراثه المشرقي على علوم وقوانين وأمثلة وحكم تجعل من هذا التراث منهلاً للمعرفة وقاعدة ينطلق منها المصريون لبعث نهضتهم ، مستشهداً في ذلك بالغرب على تفوق العرب والاسلام .

رأى الطهطاوي في تخليص الابريز ان الغرب منهل للعلوم والفنون والصنائع ، وكان إيمانه بما وصل اليه الغرب في هذه المجالات عميقاً حتى اعتبر هذا الغرب مثالاً أعلى على مصر أن تعترف له بالسبق وتحذو حذوه وتقتبس عنه في معظم المجالات .

---

(١) Louca, Voyageurs et écrivains égyptiens en France, p. 68 .

يقول :

"فما قصّرت في أن قيّدت في سفري رحلة صغيرة ، نزهتها عن خلل التساهل والتحامل ، وبرأتها عن ذلل[١] التكاسل والتفاضل ، ورشحتها بعض استطرادات نافعة ، واستظهارات ساطعة ، وأنطقتها بحث ديار الاسلام عن العلوم البرانية ، والفنون والصنائع فإن كمال ذلك ببلاد الافرنج أمرٌ ثابت شائع ، والحق أحق أن يتبع "[٢] .

ولقد بلغ اعجاب الطهطاوي بهذه الحضارة حد الافتتان ، وبالرغم من بعض تصريحات أودعها كتابه تخليص الابريز انه لن يحيد عن الاسلام ولن يستحسن إلا ما لا يتعارض مع شريعته :

"وقد اشهدت الله سبحانه وتعالى على ان لا أحيد في جميع ما أقوله عن طريق الحق ، وأن أفشي ما سمح به خاطري من الحكم على استحسان بعض امور هذه البلاد وعوائدها ، على حسب ما يقتضيه الحال ، ومن المعلوم اني لا استحسن إلا ما لم يخالف نص الشريعة المحمدية ، على صاحبها أفضل الصلاة ، وأشرف التحية "[٣] .

بالرغم من ذلك نجده قد استحسن واستلطف وفضّل وتبنى عدداً من القوانين والمفاهيم والعادات الغربية التي تتعارض بالنص الصريح مع الشريعة الاسلامية .

من تلك المسائل مسألة شرب الخمرة كما مرَّ معنا ، فلقد ميّز الطهطاوي بين شرب الخمرة وبين السُكر وبدا قابلاً بمبدأ شرب الخمرة إذا لم يقع منه ضرر على الآخرين ، محتجاً بأن ذلك لا يُعد عيباً عند الفرنسيين وأن اللوم يقع عندهم على السكارى ، فالمقياس هنا لم يعد "الحرام" وانما "العيب" .

---

(١) زلل .

(٢) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١١ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١١ .

وفي ترجمته لقانون الصحة الفرنسي ، يورد الطهطاوي بعض التعليمات التي تحذر من مضار الخمرة أيام الصيام .

يقول :

"إياك والانهماك على تعاطي الخمور والمسكرات ، سيما أيام الصوم ، وقد توهم انها تشد القوى مع ان القوة المستفادة من تعاطيها تمر في أدنى زمن ويعقبها وهن "(١) .

مع ان الخمور تحرمها شريعة الطهطاوي وخصوصاً أيام الصيام الفضيلة . فإن من يتعاطى الخمر من المسلمين في الأيام العادية يمتنع عن ذلك أيام الصيام احتراماً للشريعة ، ولو كان للطهطاوي اعتراض على بعض ما جاء به هذا القانون لحذفه ولكنه على ما يبدو لم يتحرّج من ايراده كاملاً في تخليص الابريز .

كذلك كان الطهطاوي غربياً في الكثير من المواقف التي يطول بنا ذكرها وشرحها ، كمسألة المرأة الفرنسية : سفورها ولباسها وعلاقتها بالرجل . كيف يقول شيخ أزهري في لباس المرأة الفرنسية "لطيف به نوع من الخلاعة"(٢) إن لم يكن قد أعجب بهذا الملبس وإن لم تكن ظرافة هذا الملبس قد استمالته اكثر من مسألة شرعيته ؟ كذلك لم يحرج سفور المرأة الغربية الطهطاوي بقدر ما اعجبته تسريحتها . ويندرج في السياق نفسه ، تعليقه على مس الرجل للمرأة الغربية بأن ذلك "لا يُعد عيباً عندهم"(٣) . ومما يستوقف أيضاً تفضيل الطهطاوي للرقص الغربي على الرقص الشرقي وللمسرح الغربي على عوالم مصر ولقصور الفرنسيين على قصور العرب لجهة بساطتها وخلوها من البهرجة وللمسكن الغربي بكل ما فيه على المسكن المصري وخادمه

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٣٧ .

(٢) راجع فصل الحياة الاجتماعية .

(٣) راجع فصل الحياة الاجتماعية .

الاسود اللون . والمستهجن ان يثور شيخ أزهري مصري على الخادم الأسود إلا إذا كان موقفه ومنظاره غربيين ؛ وإذا سلمّنا بأن العنصر الأسود قد عُرف بأنه عنصر من الدرجة الثانية في تراثنا فإننا لم نألف لشيخ مسلم ، من المفترض ان يتعالى عن العنصريات ،ان يضيق ذرعاً بالخادم الأسود ، إلا أن يكون هذا الشيخ قد تأثر بالموقف الغربي العنصري ، ذلك الموقف الذي يرفض حتى ان يقوم هذا العنصر بخدمته.

يقول الطهطاوي :

"إنهم لا يزوجون عادة الزنجية للأبيض او بالعكس ، محافظة على عدم الاختلاط في اللون ، حتى لا يكون عندهم ابن امة [...] بل لا يعدون انه قد يكون للزنج جمال أصلاً بل لون السواد عندهم من صفات القبح [...] على انه لا يحسن عند الفرنساوية استخدام جارية سوداء في الطبخ ونحوه ، لما ركز في اذهانهم ان السودان عارون عن النظافة اللازمة "(١) .

ونشير إلى أن هذا الموقف الغربي يتجلى واضحاً في حديث الطهطاوي على الحياة الدينية في الغرب . ولقد لاحظنا ذلك في فصل الحياة الدينية الذي كان أشد الفصول اختصاراً بسبب تجنب الطهطاوي الخوض في تفاصيل هذا الموضوع ، وتوخيه الاختصار الشديد لتقليص حجم الهوة بين الغرب والمشرق الاسلامي في هذا المجال ولتجنب ردود الفعل الشرقية الاسلامية على هذا الاختلاف .

ولم يقتصر موقف الطهطاوي الغربي على هذه المسائل ، فثمة عدد من المسائل الجوهرية كان للطهطاوي فيها موقفان متباينان متناقضان . ففي تخليص الابريز كان الطهطاوي يتناول مسألة ما من منظار معين هو المنظار الغربي ثم يعود في مناهج الألباب او المرشد الأمين فيتناول المسألة نفسها من منظار مختلف هو المنظار الاسلامي المشرقي . من هذه المسائل نذكر مسألة تصنيف الأمم في سلم التمدن

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ٨٠ .

ومسألة القوانين الطبيعية والاستعمار والنظام الاقتصادي والعلوم والملبس والمأكل .

ويبادرنا هنا سؤال وهو : إذا كان الطهطاوي قد مال في مؤلفاته الأخيرة الى موقف أكثر اعتدالاً من موقفه الغربي في بواكير مؤلفاته فعدّل آراءه بما يراعي تراثه وشريعته فلماذا وقع اختياره على تعديل بعض القضايا دون بعضها الآخر ؟

إذا تأمّلنا القضايا التي عدّل الطهطاوي موقفه فيها وحاولنا ان نجد قاسماً مشتركاً بينها ثم قارنّاها بالقضايا التي لم يجر الطهطاوي عليها تعديلاً وجدنا ان المسائل التي تناولها بالتعديل هي أمور جوهرية تتعلق بالسياسة والاقتصاد والعلوم ، اي ببناء الدولة والوطن . فالطهطاوي سواء أكان غربياً ام اسلامياً مشرقياً كان يسعى الى النهوض بوطنه وإيقاظ أمته الاسلامية من رقادها ، وإذ اصطدم بتيار سياسي وديني وشعبي محافظ مال الى البحث عن أسباب النهضة في تراثه اسوة بأسباب نهضة الحضارة الغربية جاعلاً الغرب إذ ذاك شاهداً على عراقة الحضارة الاسلامية .

ففي ميدان السياسة رأينا كيف مجّد الطهطاوي دور العقل والقوانين الطبيعية في تخليص الابريز بقوله "لتعرف كيف قد حكمت عقولهم بأن العدل والانصاف من أسباب تعمير الممالك [...] والعدل أساس العمران "[1] .

ولكننا نراه في المرشد الأمين يقول :

"وإنما ليس لنا ان نعتمد على ما يحسنه العقل أو يقبحه الا اذا ورد الشرع بتحسينه او تقبيحه "[2] .

---

(١) راجع فصل الحياة السياسية .

(٢) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، المرشد الأمين ، ص ٤٧٧ .

كذلك قوله في المرشد الأمين :

ان "رسالة البدع بالشرائع هي أصل التمدن الحقيقي الذي يُعتد به ويُلتفت اليه ، وان الذي جاء به الاسلام من الاصول والاحكام هو الذي مدّن بلاد الدنيا على الاطلاق"(١) .

ثم يتابع المقارنة بين الاحكام الاسلامية والاحكام الغربية مبيناً ان الاحكام الغربية لا تختلف عما تنص عليه أحكام الفقه الاسلامية .

وفي مسألة الاستعمار التي أشرنا اليها في فصل الحياة الاقتصادية ، رأينا كيف كانت نظرة الطهطاوي الى الاستعمار إيجابية في تخليص الابريز حيث رأى فيه فائدة لكلي المستعمِر والمستعمَر وكيف اعترض على هذه السياسة في مناهج الألباب ناعتاً إياها "بالايغال" و "بالتشهيات الفاسدة" .

وفي ميدان الاقتصاد ، توقف الطهطاوي عند حب الفرنسيين للعمل ودأبهم عليه وتصنيفهم له كفضيلة بحيث ان كلمة الذم عندهم هي "التنبلة" ثم عاد في المرشد الأمين فنوّه بدور العمل وبقدسيته مستشهداً هذه المرة بأمثلة من التراث وبأحاديث نبوية .

يقول :

"ومن كلام لقمان الحكيم : الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما، فهاتان القوتان متباينتان ومستويتان في الانسان ، بدون راجحية ولا مرجوحية ، فحب الدعة يبعث الانسان على ان يجر لنفسه جميع ملاذ الحواس ، وأما الآمال فتبعثه على الحصول على راحة الروح وكمال التمدن والائتناس [...] وقد علمنا سبحانه وتعالى وجوه المكاسب والمنافع ، والهمنا دقائق الفنون ، والصنائع ، حيث مدح السعي وذم البطالة بقوله تعالى : (وان ليس للإنسان الا ما سعى) [...] وقال الجنيد، رحمه الله تعالى : اذا رأيت الفقير يطلب السماع فاعلم ان فيه بقية من

---

(١) راجع فصل الحياة السياسية .

البطالة ، والله لا يحب الرجل البطال . فان من تعطل وتبطل فقد انسلخ عن الانسانية وصار من جنس الموتى ، وذلك ان الله خص الانسان بالقوى ، فالقوة الفكرية تطالبه بالعلوم التي تهديه ، وبالصنائع التي يترتب عليها من المكاسب والمنافع ما يرضيه ويصونه ويحميه "[١] .

وفي مجال الاقتصاد ايضاً ، توقف الطهطاوي في تخليص الابريز عند النظام الاقتصادي الفرنسي ونظام الضرائب الذي يؤمن مصاريف الدولة دون ان يرهق المواطن حتى تمنى لو كان هذا النظام معمولاً به في البلاد الاسلامية ، محاولاً ان يجد في الشريعة بعض أصول او بذور لهذا النظام ، وبكلام آخر ، محاولاً ان يجعل الاسلام شاهداً للغرب .

يقول :

"ويمكن ان يُقال ان الفرد ونحوها لو كانت مرتبة في بلاد الإسلام كما هو في تلك البلاد لطابت النفس [...] وربما لها أصل في الشريعة على بعض أقوال مذهب الامام الاعظم "[٢] .

إلا ان الطهطاوي يعود في مناهج الألباب فيحاول ان يثبت أن هذه القوانين الاقتصادية التي تقوم عليها الدول الغربية مستنبطة من الأحكام الشرعية الاسلامية ، محاولاً بذلك ان يجعل الغرب شاهداً للإسلام .

يقول :

"ومن امعن النظر في كتب الفقه الاسلامية ظهر له انها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية ، حيث بوبوا للمعاملات الشرعية أبواباً مستوعبة للأحكام التجارية كالشركة ، والمضاربة [...] ولا شك أن قوانين المعاملات الاوروباوية استنبطت منها

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، المرشد الأمين ، ص ٣١٤ - ٣١٦ .

(٢) راجع فصل الحياة الاقتصادية .

كالسُّفتجة التي عليها مبنى معاملات أوروبا "[١] .

وفي مجال العلوم شدد الطهطاوي في تخليص الابريز على تقدم الغرب في هذا الميدان ، ولقد نعته بالحق حين قال في تقاريره عن باريس :"والحق أحق أن يتبع" . كما انه صنف الغرب في الدرجة الأولى بين الأمم لناحية التمدن والعمران والعلوم في حين أنه صنّف عرب البادية في الدرجة الثانية على معرفتهم بأمور الدين وبالحلال والحرام لأنهم على حد قوله لم تكتمل لديهم المعرفة في العلوم الحكمية كما يسميها أي العلم الحديث .[٢] إلا أنه يعود في مناهج الألباب والمرشد الأمين فيصرّح بتفضيله للأمة العربية الاسلامية على سائر الأمم وللعلوم الشرعية على العلوم كافة .

يقول :

"وربما مال بعض المتهاونين بالدين الى العلوم العقلية ، ورأى أنها أحق بالفضيلة وأولى بالتقدمة ، استثقالاً لما تضمنه الدين من التكليف واستصعاباً لما جاء به الشرع الشريف ، من التعبد والتوقيف "[٣] .

كذلك قوله :

"وأفضل العلوم : علم دين الله وشرائعه ، فإن به حفظ الإيمان والاسلام "[٤] .

أو قوله :

---

(١) راجع فصل الحياة الاقتصادية .

(٢) راجع تخليص الابريز ، ص ١٥ ، ١٦ .

(٣) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، مناهج الألباب ، ص ٢٨٦ .

(٤) راجع فصل الحياة العلمية .

"فأولى العلوم وأفضلها العلوم الشرعية ، التي بمعرفتها جميع الناس يرشدون وبجهلها يضلون ولا يهتدون "(١).

وفي تفضيله للأمة الاسلامية :

"وقد فضل الله تعالى هذه الامة على سائر الأمم بما خصهم به من الايمان والحكم والعلوم الشرعية ، خصوصاً علم الشريعة والحقيقة [...] وقال تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس)(٢) وهذه الآية مما استدل بها [كذا] على افضلية نبينا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، على جميع المخلوقات، إذ حاصلها الاخبار بأن أمته أفضل الأمم ، ولا شك ان خيرية الأمم بحسب كمالهم في الدين وذلك تابع بكمال نبيّهم الذي يتبعونه ، فتفضيل الأمة ، من حيث انها امة ، تفضيل للرسول الذين هم امته "(٣).

كذلك قوله :

"فالعقل قاض بفضل العرب"(٤)

وفي ميدان الاجتماع ، كان الطهطاوي في تخليص الابريز ، شديد الاعجاب بالعادات الاجتماعية الغربية في المآكل والملبس والمسكن وغيرها : ولقد توقف عند ترتيب سفرتهم وأكلهم بالملعقة او الشوكة لا بيدهم .

يقول :

"فلا يأكل الانسان بيده أصلاً [...] ويزعمون أن هذا أنظف وأسلم

---

(١) راجع فصل الحياة العلمية .

(٢) آل عمران ، المحقق .

(٣) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، المرشد الأمين ، ص ٧١٩ ، ٧٢٠ .

(٤) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، مناهج الألباب ، ص ٣٦٠ .

عاقبة"[1] .

كذلك :

"ويرون ان من النظافة أو الشلبنة ان لا يمس الانسان الشيء بيده [...] وبالجملة فآداب سفرتهم وترتيبها عظيم جداً "[2] . ولكن الطهطاوي وفي الموضوع ذاته أي الأكل بالملاعق يورد في المرشد الأمين حادثة تفيد بأن الأكل بالملاعق بدعة مباحة من الأفضل الاستغناء عنها كما فعل الخليفة هارون الرشيد [3] .

لقد أبدى الطهطاوي أيضاً ، في حديثه على الملبس ، إعجابه بملابس الفرنسيين لناحية بساطتها ونظافتها ومراعاتها للقوانين الصحية ، وتذكر بعض المراجع ان الطهطاوي قد عاد من باريس بزي اجنبي .

يقول فيليب دي طرازي :

"وكان في أوائل حياته الى ان عاد من الديار الافرنجية يلبس اللباس العربي الخاص من الجبة والعمامة والقفطان [...] ثم بدّله باللباس الافرنجي المشهور "[4] .

إلا ان الطهطاوي عاد في مناهج الألباب فقال :

"وربما توهم البعض أن التزيي بزي البلاد الأجنبية ، المشهورة

---

(١) راجع فصل الحياة الاجتماعية .

(٢) راجع فصل الحياة الاجتماعية .

(٣) راجع فصل الحياة الاجتماعية .

(٤) فيليب دي طرازي ، تاريخ الصحافة العربية ، المطبعة الأدبية، بيروت ، ١٩١٣ ، ج ١ ، ص ٩٥ .

بالتمدن ، هو من المروءة الكاملة ، والسيرة الفاضلة ، فبادر بالامتياز بها عن الاكثرين بدون موجب ، مع أن قيافة بلده لا تنقص عنها شيئاً ، وإنما قصد بذلك الخروج عن قيافة وطنه [...] فالتمدن ليس في زينة الملابس بعرف مجهول مُتخيل استحسانه "[1] .

يتبيّن مما تقدم ان الطهطاوي لم يكن صاحب موقف واحد من الغرب ، فلقد كان غربياً في بداية حياته ثم مال في كهولته الى موقف اسلامي مشرقي محاولاً أن يبعث تراثه وأن يبيّن ان هذا التراث قادرٌ على النهوض بالوطن وبالامة وعلى مدّهما بأسباب التمدن ، ولا مانع إذ ذاك من أن يستعير هذا التراث بعض المستحدثات من الحضارة الغربية ؛ أي أن الطهطاوي أراد أن تكون أسس الحضارة عربية إسلامية تزيّنها بعض المنافع الغربية بمقتضى الحاجة .

ونشير أخيراً الى أن تلك الحدود التي رسمناها بين تخليص الابريز ، ومناهج الألباب والمرشد الأمين ليست حدوداً قاطعة غاية في الوضوح ، فلقد كانت للطهطاوي أحياناً آراء مضطربة متضاربة ضمن الكتاب الواحد أو ضمن الفقرة الواحدة من الكتاب ، كموقفه مثلاً من دور العقل[2] ، أو من القضاء والقدر ، بحيث يتردد الطهطاوي بين قدرة العلم الحديث على شفاء المريض ودرء الموت عنه وبين حتمية القضاء والقدر .

يقول :

"ففي كل عشرين مريضاً يموتون في الأرياف فأكثر من الثلثين يمكن انه كان يشفى بلا شيء لو كان في موضع مستور من مضار رياح ، وكان لا يشرب الا ماء مبرداً ، ولكن لا مفر من القدر "[3] .

---

(١) راجع فصل الحياة الاجتماعية .

(٢) راجع الاعمال الكاملة ، المقدمة ، ص ١١١ – ١١٧ .

(٣) الطهطاوي، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٣٢ .

هذا الاضطراب في فكر الطهطاوي بل هذه الثنائية بعيدة عن أن تكون موقفاً توفيقياً كما وصفه البعض بل هي الى الصراع والتنازع والجدلية أقرب ؛ فهو مع تسليمه بتفوق الغرب في ميدان العلم وفي معظم الميادين ومع ميله الى تبني منجزاته ، يصطدم بخلفية غربية مناقضة لخلفيته الاسلامية إن لم نقل هادمة لأسسها .

ويدلنا على حيرة الطهطاوي وتردده قوله :

"ويقيمون على ذلك [اي على علومهم وأفكارهم] أدلة يعسر على الانسان ردها "[1] .

ولقد تعذّر على الطهطاوي مناقشة هذه الأفكار تمهيداً لتبنيّها او لردها ، فنراه أحياناً قد اختصر فيها القول كما في المسائل الدينية والبدع والضلالات في الغرب ، ونراه أحياناً أخرى قد ضرب عنها صفحاً باحثاً عن مثيلاتها في تراثه بهدف تلافي الجدلية القائمة بين منجزات الحضارة الغربية وأحكام الشريعة الاسلامية .

كلمة أخيرة نقولها وهي أن الطهطاوي رغم ميله الى تعديل موقفه في آخر سنيّه ، قد ظل على حبه للغرب وافتتانه به وإخلاصه له في سريرته ، كما ظل بالنسبة إلى القارىء المدقق ، غير واثق بالتمام إلى أي الجهتين يميل .

---

(١) الطهطاوي ، الاعمال الكاملة ، تخليص الابريز ، ص ١٥٩ .

المصــادر والمراجــع

- أ - العربية

- أبو حمدان ، سمير ، رفاعة الطهطاوي ، رائد التحديث الاوروبي في مصر ، دار الكتاب العالمي ، بيروت ، ١٩٩٢ .

- أمين ، أحمد ، زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

- بدوي ، أحمد ، رفاعة الطهطاوي بك ، لجنة البيان العربي ، لا . ت.

- بشور ، أمل ، حملة بونابرت الى الشرق ، مخطوطة نقولا الترك ، جروس برس ، طرابلس ، الطبعة الاولى ، ١٩٩٣ .

- الترك نقولا ، ديوان المعلم نقولا الترك ، ضبط نصوصه ووضع مقدمته وفهارسه فؤاد أفرام البستاني ، بيروت ، ١٩٤٩ .

- __________ ذكر تملك جمهور الفرنساوية الاقطار المصرية والبلاد الشامية أو الحملة الفرنسية على مصر والشام ، حققه وقدم له ووضع حواشيه ، ياسين سويد ، دار الفارابي ، بيروت ، الطبعة الاولى ، ١٩٩٠ .

- الجبرتي ، عبد الرحمن ، عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، أربعة أجزاء ، تحقيق وشرح حسن محمد جوهر ، عمر الدسوقي ، ابراهيم سالم ، لجنة البيان العربي ، الطبعة الاولى ، ١٩٦٥ - ١٩٦٦ .

- ______________ مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس ، تحقيق وشرح حسن محمد جوهر ، عمر الدسوقي ، ابراهيم سالم ، لجنة البيان العربي ، الطبعة الاولى ، ١٩٦٩ .

– حوراني ، ألبرت ، الفكر العربي في عصر النهضة ، ١٧٩٨ – ١٩٣٩ ، ترجمة كريم عزقول ، دار النهار للنشر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٧ .

– خوري ، رئيف ، الفكر العربي الحديث ، أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي ، دار المكشوف ، بيروت ، الطبعة الاولى ، ١٩٤٣ .

– دي طرازي ، فيليب ، تاريخ الصحافة العربية ، أربعة أجزاء في مجلدين ، المطبعة الادبية ، بيروت ، ١٩١٣ .

– الرافعي ، عبد الرحمن ، عصر محمد علي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثانية، ١٩٤٧ .

– رفاعة ، فتحي ، لمحة تاريخية عن حياة ومؤلفات الشيخ رفاعة بدوي رافع الطهطاوي ، ١٩٥٨ .

– الزركلي ، خير الدين ، الاعلام ، ثمانية أجزاء ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، ١٩٨٠ .

– زيادة ، معن ، معالم على طريق تحديث الفكر العربي ، مجلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٨٧ .

– زيدان ، جرجي ، تاريخ آداب اللغة العربية ، أربعة أجزاء ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٨٣ .

– سركيس ، يوسف إليان ، معجم المطبوعات العربية والمعرّبة ، مجلدان، مطبعة سركيس ، مصر ، ١٩٨٢ .

– شرابي ، هشام ، المثقفون العرب والغرب ، عصر النهضة ١٨٧٥ – ١٩١٤ ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧١ .

– الشيال ، جمال الدين ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي ، دار الفكر العربي ، ١٩٥١ .

– ________ رفاعة الطهطاوي ، زعيم النهضة الفكرية في عصر محمد علي ، دار إحياء الكتب العربية ، لا. ت.

– ________ رفاعة رافع الطهطاوي ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٨ .

– شيخو ، لويس ، الاداب العربية في القرن التاسع عشر ، جزآن ، الجزء الاول : المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٢٤ ، الجزء الثاني: مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٢٦ .

– الطهطاوي ، رفاعة رافع ، الاعمال الكاملة ، دراسة وتحقيق محمد عمارة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٣ .

– طوسون ، عمر ، البعثات العلمية في عهد محمد علي ثم في عهدي عباس الاول وسعيد ، مطبعة صلاح الدين ، الاكندرية ، ١٩٣٤ .

– عازوري ، نجيب ، يقظة الامة العربية ، تعريب وتقديم بو ملحم ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، لا. ت.

– عمارة ، محمد ، رفاعة الطهطاوي ، رائد التنوير في العصر الحديث ، دار الوحدة للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٤ .

– فنديك ، ادوارد ، اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ، مطبعة بهمن ، قم ، الطبعة الثانية ، ١٣٠٩ هـ ق.

– مبارك ، علي ، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، عشرون جزءاً في اربعة مجلدات ، المطبعة الاميرية ، بولاق ، الطبعة الاولى ، ١٣٠٥ ، ١٣٠٦هـ .

- مجدي ، صالح ، حلية الزمن بمناقب خادم الوطن ، سيرة رفاعة رافع الطهطاوي ، نشر وتحقيق جمال الدين الشيال ، مصر ، ١٩٥٨ .

- مؤنس ، حسين ، الشرق الاسلامي في العصر الحديث ، لجنة الجامعيين لنشر العلم ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٣٨ .

- ب - الاجنبية

- Abu - Lughod, Ibrahim , Arab rediscovery of Europe, New Jersey, 1963.

- Antonius, George, the Arab awakening, Norwich .

- Encyclopaedia of Islam, Four volumes, Leiden, 1936.

- Gibb, M.A.R. and Bowen Harold, Islamic Society and the West, London, second impression, 1951 .

- Louca, Anouar, Voyageurs et écrivains égyptiens en France au XIXe siècle, Didier, Paris, 1970.

- Pearson, J. D. , Index Islamicus 1976 - 1980, London.

- De Vaux, Carra, les penseurs de l'Islam, 5 volumes, Paris, 1926.